

جورکي

جامعاتي

P. A. U. B. LIBRARY



891.78
G 669 j A

جَامِعَاتِي

أو

ثورة الطلبة

تَقْرِيبُ
مُحَمَّدِ التَّوْحِي

تَأَلِيفُ
مَكْسِيمِ جُورَكِي

منشورات مكتبة المعارف
في بيروت

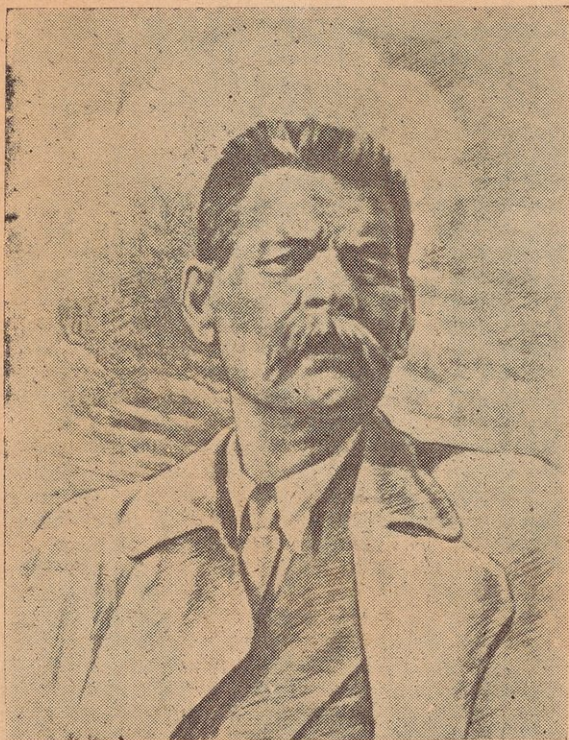
My Universities

By

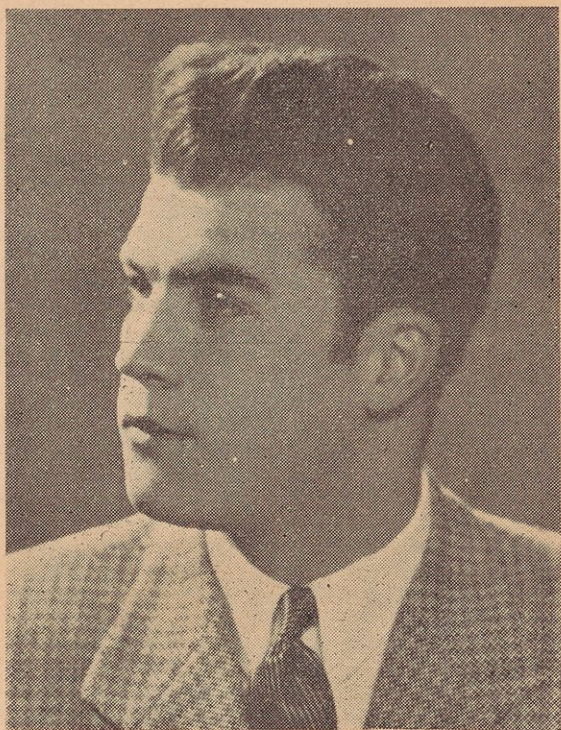
Maxim Gorki

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٥٤



صورة المؤلف



صورة المترجم

الاهداء



الى الشعب ..

الى الشباب...

الى الطلاب...

سأذهب الى الجامعة

وأخيراً أصبحت على أهبة السفر إلى « قزان » للدراسة في الجامعة ، ولا شيء أكثر من هذا .

ولقد حثني على التفكير بالدراسة الجامعية ، وحبيبها الى خيالي أحد طلاب الصف التحضيري ، ويدعي « إيفرينوف » .
شاب طيب السياء ، انيق جداً ، له عينان عطوفتان كعيني امرأة حنون . وهو يعيش في اعلى غرفة من البناء الذي اسكن فيه مع عائلتي . ولما كان يراني متأبطاً كتاباً يلازمني طوال تجوالي ومسيرتي ، زاد ولعه بي ، حتى انه طلب مني مرة ان اقبل صداقته ، وقد كان ذلك ..

ولم يمض كثير وقت على صداقتنا حتى بدأ يقنعني باني ذو ملكة فائقة لطلب العلم ، كان يعلن لي مآربه وهو يرمي بشعره الاسود الى الخلف بحركة ظريفة مرغوبة ، مضخماً قوله لزيادة رغبتني ، ويقنعني بان الطبيعة قد حببني نفساً تواقاً الى العلم ، وراغبة بالدراسة العليا .

لم اكن لأعلم في ذلك الوقت ان باستطاعة المرء درس العلوم
العالية في الجامعات ، ووضح لي « إيفرينوف » ذلك مراراً ، حتى
انه اقنعني بان الجامعة لا ينقصها الا شبان امثالي ، كي تحصل على
اسمها ، وبالطبع كان اسم « لونوسوف » مذكوراً في حديثنا
كمثال لامع لي .

قال لي ايفرينوف باني يجب ان امكث معه في قازان للمطالعة
اثناء الحريف والشتاء كي نتمكن من انتهاء برنامج الدراسة الجامعي ،
وبعدها اقدم على بضة فحوص ، ومن ثم تمنحني الجامعة حق
الانتساب المجاني اليها ، وبعد خمس سنوات ، او ما يقارب ذلك ،
سأصبح عالماً في احد العلوم . كل هذه قد هونها عليّ ايفرينوف ،
وسهل الغاية التي ينشدها من اجلي ، لانه كان شاباً لا يزيد عن
التاسعة عشرة من عمره ، ونفسه الطيبة رؤوفة بي ، ثم غادرني
صاحبي بعد ان انهى اشغاله .

- ٢ -

جدتي العزيزة

قالت لي جدتي عندما تأهبت لتودعني ، محاولة وعظي بحكم
مفيدة :

- لا تغضب الناس يا عزيزي ، كما لا تتأثر منهم ، لان نفسك
شديدة الانفعال ، وقمى الى التشاؤم ، ولا تطلب من الناس اكثر

بما يستطيعون .. ليس هذا منك ، انما انت وارث عن جدك هذه
النفس المنفعلة .. حسناً .. ماذا كان جدك ؟ .. لقد عاش اعواماً
طويلة جداً ، ثم مضى وباد دون ان يشعر به احد . نعم ، ذلك
الرجل المسكين ..

ضع هذه الجملة نصب عينيك دائماً .. ليس الله الذي يدين
الرجال ، انما هذا عمل يفعله - تسلياً - الشيطان .. حسناً ..
الوداع ..

ثم اردفت تقول ، وهي تمسح دمعاتها المتساقطة من مآقيها
العميقة على وجنتيها المتجمعتين السمراروين :

- وأعتقد اننا لن نتقابل بعد اليوم . ستجول في البلاد ، تأهلاً
هنا ، سارحاً هناك .. وانا ساموت . فوداعاً ايها الروح الفتية .
وبعد هذه الموعظة التي قدّمتها لي جدتي ، لم أعد اراها الا
نادراً ، وحين انتهى تفكيري الى هذا الحد ، طرأ على ذهني ألم
فجائي أوقر نفسي ، وجعلني اشعر باني من المستحيل ان
أقابل صديقاً صادقاً ، وقريباً حميماً مثلها ، فقد كانت جزءاً من
ذاتي في ايامي الماضية ، تلك التي زكتني بمواعظها .

ومن مقعد الفلّك ألقيت نظرة الى جدتي التي كانت منتصبية
على رصيف الشاطئ ، وهي تتألم كألمي ، وتجفف من دمعها بطرف
سأها البالي العتيق

ووصلت السفينة الى المدينة نصف التتارية ، والمؤلفة من
بيوت متلاصقة الى بعضها بشكل غير مرصوف ، قاصداً بيتاً ذا
طابق واحد ، منعزلاً عن الأزقة ، يعلو هضبة واطئة عند نهاية

زقاق مطبوع بطابع الفقر والمرض ، وبجانب البيت يواجه المرء أرضاً فقراء ، داهمتها الاعشاب اليابسة بكثافة ، فبان كمنظر متشابك يشبه ثورة لجوجاً . وقد غزت الشجيرات والاعشاب الطفيلية اخشاب المنزل العفنة ، وفي اسفله كهف مظلم ترقد فيه الكلاب والقطط الشاردة ، واحياناً تجعله قبراً لها ومثوى . اني اذكر هذا الكهف تماماً لأنه كان احد الامكنة لجامعاتي .

كان اهل ايفرينوف أمماً وابنين ، يعيشون على راتب تقاعدي ضئيل . وشعرت منذ اوائل مكوثي معهم بألم الأرملة اليافعة البائس ، عندما تعود من السوق وتفرد مشترياتها على طاولة المطبخ اذ تواجه صعوبة في امر الطبخ ، كيف يمكنها ان تحول بضع قضمت من لحم ضعيف المادة ، الى طعام دسم سخّي ، يكفي لثلاثة اولاد اصحاء ، دون ان تحسب لنفسها حساباً من هذا الأكل ؟ كانت صبورة وقليلة الكلام ، وكذلك عيناها الرماديتان الجاحظتان . وهي بعناد حصان اضناه التعب حتى آخر 'محتمله' ، اثناء جره عربته متجهاً الى اعلى الهضبة ، ذلك الحصان المسكين الذي يعرف انه لن يستطيع الوصول الى القمة ، ومع ذلك فانه يشد حمله بصبر وجلد .

وفي صباح رابع يوم من وصولي ، سألتني الأم بجذر هاديء اثناء مساعدتي لها في بعض امور المطبخ . وقد كان الأولاد نياماً :
— لماذا قدمت الى المدينة ؟

فأجبته :

— للدراسة .. للجامعة .

عندئذ ارتفع حاجباها ، دهشة ، وتجعدت جبهتها فسقطت
السكين من يدها ، وجرحت اصبعها ، فألصقتها بشفتيها لتمنع
الدم من ان يسيل ، وتهاكت على كرسي هناك ، وبعد ان اخذت
بعض الراحة ، هبت للتو قائلة لنفسها بحدة :
— آه ... يا للشيطان ! ..

وعندما ضمّدت جرحها بمنديل قدر بعض الشيء ، أردفت كلامها
و كأنها تحاول تغيير دفة الحديث :

— انك تقشر البطاطا تقشيراً ممتازاً !

— أظن أنني نزعت قشرتها بتؤدة .

ثم أخبرتها عن عملي ، على قارب نهري ، واستفسرت هازئة :

— وهل تعتقد ان هذا تحضير كافٍ لالتحاقك بالجامعة ؟

لم يكن لي في تلك الأيام كثير خبرة عن اصول الفكاكة ،
فاعتبرت تسألها جدياً ، وشرحت لها بعض الأهداف التي سوف
تؤهلني للدراسة حين تفتح أبواب العلم أمامي .
فتنهدت قائلة :

— آه . نيقولاي .. نيقولاي ! .

قالت كلمتها عندما كان نيقولاي داخلاً إلى المطبخ كي يغتسل .
كان شعره مشعثاً وعيناه ناعستين ، وكتفاه منهوختين ، فقال :
— أماه .. أعتقد أن بعض أقراص العجين ستكون
ممتازة جداً .

فوافقت الأم قائلة :

— طبعاً يا بني .

ولشدة رغبتي في أن أعرض معلوماتي في الفنون المطبخية ،
أبدت ملاحظة ، بأن اللحم ليس من الصنف الجيد لهذا النوع من
الطعام . وأضاف هو على ذلك أن كمية اللحم غير كافية لطبخة كما
يريدها هو .

وعند سماعها ذلك مني ومن نيقولا ي ، غضبت جداً ، ووجهت
لي بعض الكلمات القاسية حتى ان اذني بدت لي وكأنها بارتعاش
راجف ، فقدفت كومة الجزر جانباً وغادرت المطبخ ، فغمزني
نيقولا ي شارحاً الموقف :

- انها في أسوأ اطوارها .

وجلس جلسة مريحة على مقعد هناك ، وأخبرني أن النساء
أكثر عصبية من الرجال ، وهذه هي طبيعة المرأة . ولقد أثبت
ذلك عالم سويسري بشكل لا يقبل الريب ، واذا لم تضيع عليّ
ذاكرتي شيئاً ، رجل اسمه « جونز ستوارت ميل » الذي سبق
وقال شيئاً من هذا القبيل .

كان نيقولا ي يتمتع كثيراً بطريقة تعليمه إياي ، ليغتنم
الفرص السانحة ليحشو - ما استطاع - في دماغي أشياء من الحكم
النافعة ، والتي تصبح الحياة بدونها - بكل تأكيد - مستحيلة
وصعبة ، وكنت ألتهم كلماته بكل اشتياق ورغبة .

وبعد مدة كانت الاسماء « فوكو » و « دولاروش فوكو »
و « دولاروش فوكولان » تنتصب جميعاً في مخيلتي . ولم يكن
باستطاعتي أن أتذكر ما إذا كان « لافوازييه » قد قطع رأس

« ديمو ريبه » او ان العكس أصح . صديقي ، ذلك الشاب اللطيف قد صمم بكل إخلاص أن يجعل مني شخصية فذة ، ولقد وعدني بذلك سرّاً ، ولكن لم يكن لديه المتسع من الوقت ، والشروط اللازمة للسير بتثقيفي سيراً متواصلاً صحيحاً .

تلك هي انانية ولا مبالاة بعض الشبان التي منعتهم من الاقدام أو من أن يرى - على الأصح - كيف كانت أمه تنهك نفسها لتتلافى نقص المال لديهم ، وكذلك أخوه فانه أقل ملاحظة على أمه منه ، كما أنه طالب بليد كسول . اما أنا فقد كنت على اتصال دائم بالمطبخ ، بين تنظيم وطبخ ، لذا كنت ألاحظ جهود المرأة اليائسة بوضوح ، تلك الجهود اليومية لم يعد أولادها ، ولا طعام شاب غريب ذي مظهر غير خلاب ، مشاكس ، وأعماله غير مرغوبة . وبالطبع ، كل لقمة كنت ازدردها هنا ، ثقيلة على ضميري صعبة البلع ، فعملت في مكان بالمدينة . وبدأت أترك البيت باكراً قبل الطعام ، وأبقى بعد العشاء بعيداً عن المنزل حتى أؤكد من انتهاءهم من العشاء . أما في الايام الماطرة ، فاني كنت اقضي هذه الساعات لاجئاً في كوخ المنزل المهجور .

كنت أجلس هناك بين القطط والكلاب الميتة ، اتنفس الروائح النتنة ، وأتسرع إلى المطر الهاطل ، وإلى الريح التي تصل الى الأذان ، وهناك فهمت أن الجامعة حلم هازيء بي ، وأن الأجدد بي أن أرتحل إلى بلاد الفرس ، مصوراً نفسي كساحر ذي حلية ومادية ، خالقاً الوسائل لانماء القمح والبطاطا التي تزن كل واحدة

منها رطلاً .

لقد سبق وتعلمت كيف أحلم بالمغامرات الغريبة والأعمال العجيبة ، فكان هذا عزاء لي في أيام الحياة الشاقة . ولما كانت هذه الحياة شاقة فقد برزت وأصبحت خبيراً بأحلام اليقظة هذه ، ومن طبعتي أنها لا تطالب بالمساعدة ، ولم أعز آمالي المحطمة الى الحظ اليأس انما لي عقيدة سمحة لا تقبل الاستسلام في اي حين ، وكما حطت الأيام بي في الشقاء ، كلما أصبحت أشعر بنفسي تعطي صارمة قوية ، تجيب بحكمة أكثر ، وتؤكد تماماً بأن الرجل يخلق بالمقاومة التي يجابه بها محيطه وبيئته .

كنت أذهب إلى « الفولغا » كلما اشتد بي الجوع ، واوسع شروره في احشائي ، حيث باستطاعة المرء ، وبكل سهولة ، ان يكسب خمسة عشر او عشرين كوبيكس . وبين هؤلاء البحارة كنت أشعر وكأن نفسي قضيب من حديد ، وضع على فحجات محرقة متأججة ، وأرى من خلال نفوسهم وكأن العالم ألعبوبة ، حيث غرائز الرجال قاسية ، وجشعهم لا كتساب العيش عار وبغير لثام ، ويأس هذا البشر ضد الحياة كان يجيبهم الى نفسي فأقترب منهم ، وتعجبني منهم كلماتهم الساخرة نحو هذا العالم . وان عدم اهتمامهم بنفوسهم ، وحياتي التي عشتها في ذلك المنزل الفقير حضتني على الانغماس بكلامي في عالمهم اللاذع الحشن . وليست قصص « برت هارت » والقصص الرخيصة غيرها التي قرأتها لتزيد عن حياة هؤلاء البشر .

عاشق النساء

وقد تعرفت على اشخاص عديدين منهم «بوشكين» اللص المحترف المسلول ، والذي كان سابقاً يدرس في دار المعلمين ، كان يحقد على مدرسته لأنه يلاقي فيها كل صفع وضرب بلا هوادة ، وكثيراً ما وبخني مدعيًا العزة والحكمة إذ يقول .

- ما لهذا قد طغى على نفسك وجعلك كفتاة يافعة ساذجة ؟
أتخشى ان تفقد شرفك ؟ شرف العذراء ثمن باهظ لا يعوّض ، أما من ناحيتك فلا يخالك الشك .. ان الثور الشريف ، بإمكانه إملأ معدته بالحشائش التي يقضمها من الارض ، اما أنت ، فثقل أنى نزلت .

كان « بوشكين » قصير القامة ، ذا شعر احمر حليق ، وانه بأفعاله وحرركاته يحاكي الهرة الصغيرة . يضر لي بعض الحب وكذلك الحظ الجميل والسعادة . واستطاع ببعض الكتب الراقية التي قرأها ان يقوي من ذكائه ، واحب كتاب إليه كتاب اسمه « الكونت دي مونت كريستو » الذي اعجب به أيما اعجاب وعنه يقول :

- ان لهذا الكتاب نفساً تواقه ، وهدفاً سامياً .

وهو محب للنساء ، مكثر الاحاديث عنهن ، وحين يسمع قولاً جميلاً عنهن يندفع بكليته ، كاندفاع العابد من صومعته حين يذكر امامه اسم الله ، ويتملظ بشفتيه يشغف باذخ ، كأن غريزته

الجنسية تنتفض بجسمه الأهيف الضعيف . وطبعاً لم تكن هذه الحركات مرغوبة ، بل ان البدن ليقشعر لها حقارة ، ورغم ذلك فاني أستمع - مأخوذ اللب - الى حديثه الشيق ، وانا موقن تمام اليقين من صدق قوله . كان يتكلم بصوت كأنه نغم موسيقي ساحر ، بوجنتين ورديتين وعينين سوداوين تتأججان ببريق الحب : - النساء .. النساء . إني مستعد لتسهيل المستحيل من اجل امرأة ، انها كالشيطان تفعل الخطيئة ، ولا تدري انها الخطيئة . عش بالحب يا صاحبي - ليس في الحياة أعظم منه واهون ؟ كان ذا موهبة رائعة لسرد الأقايص العجيبة ، ويؤلف ايضاً مقطوعات غنائية للمومسات ، راثياً لهن الحب المتعثر الباهت ، وأكثر أغانيه حول مدن نهر الفولغا . ومن بين هذه القصائد ، قصيدة منتشرة حتى في أقاصي البلاد وهي :

« ترى الفتاة البسيطة الجميلة الفقيرة »

« مرتدية ثياب حياتها البدوية العادية .. »

« أي انسان سيتزوج مثل هذه الفتاة ! »

« من الصعب ، بل من المستحيل فعل ذلك . »

- ٤ -

في ليلة ظلماء

الشخص الثاني كان « تروسوف » عذب الهيئة ، يرتدي بزة لها

مسحة من جمال وذوق ، له اصابع رفيعة ، تشبه اصابع موسيقي ..
سريع الانفعال ، يود ان يحبني ، ويلاطفني بصدق . كان صاحب
حانوت لتصليح الساعات في المنطقة « الاميرالية » ولكن عمله
الحقيقي هو ... بيع البضائع المسروقة ، وكلما يراني يقول لي
محاولاً إقناعي :

— لا تدع نفسك تنساق الى حياة اللصوصية يا « مكسيميتش » ..
ثم يسكت ، ليعيد كلامه من جديد وهو يداعب خيته
الرمادية ، ناظراً نحوي بمهارة خارقة :

— نعم . ليس هذا طريقك ، فاسلك غيره ، ولست من
الماديين عبید المال .. انما انت شاب مثال في المعنوية .
فأجبت به بتساؤل :

— ماذا تقصد بكلمة « المعنوية » ؟ !

— لا تكن أناانياً تحسد الآخرين على مهنهم ، انما كن كالمطلعين
للعلم دفين إليه .

فأتساءل ، فيما إذا كان وصفه لي ينطبق بعض الانطباق عليّ ؟ !
إني حقاً غيور أحسد « بوشكين » على ذلاقته في الحديث ، وبلاغته
التي تشغف السامع ، وإني أتذكر الآن أولى مغامراته الغرامية ،
التي كان يوفق فيها أيهما توفيق :

« في ليلة حجب الظلام نجومها ، وانطقات من القمر أنواره ،
رحلت مندفعاً إلى بيت في مدينة « زفيازسك » المطبوعة بطابع
الفقر المعدم . كان ذلك في خريف تشرين الاول وقتما أخذ المطر

في ذرّه الناعم الخفيف ، وشرعت الريح تنث أنثات الأغاني التتارية
عند ما يُرثى شخص متالم ...

.. في تلك الوهلة قدمت بحفّة الظل ، ورقة الملائكة ، وردية
اللون كأنها بزوغ الشمس ، في عينيها طهارة ، وفي نفسها روح
خفيفة . وهي تقول :

- يا حبيبي العزيز .

كان صوتها يرن في فؤادي بخلجات صادقة :

- لم أخطئ معك .

كنت أعرف أنها كاذبة ، ورغم هذا فاني حاولت تصديقها مع
مع أن قلبي يكذبها ، ويهتز الجثمان بموسيقى خفيفة ويلتصقان ،
وترتفع يده ليلمس مافوق القلب .. كان السكون يشملها ، ومع
ذلك فالحياة ملء أشداقها ، يستعذبان الحب ، ويصدران أعذب
الاقوال كأنهما بلبلان غريدان .

و كنت أحسد « تروسوف » ايضاً الذي كان يقص القصص
الساحرة عن سيبريا وخيفا وبخاري ، ويقص ايضاً الأقاصيص
الفكاهية والمسلية - رغم مرارة عيشه - عن حياة الكنيسة
ودرجات الكهنوتية . وقد اعلن في احد الايام بشيء من الغموض
عن القيصر « اسكندر الثالث » قائلاً :

- ياله من قيصر ماهر في اعماله ! .

وقد تشبّه « تروسوف » بأحد الشريرين الذين ينهون المسرحية
بدراما غنيقة حتى يكسبوا لقب البطّل ، وتصبح نفوسهم من
ذوي المعالي ! .

النهر الحزين

في ليلة ليلاء ، غارقة في الظلام قطع هؤلاء الاشخاص وامثالهم
نهر قازان ومدوا السماء ، وشرعوا في اللعب مع الكاس والطاس ،
والاحاديث عن مصاعب الحياة ، وعن غموض العلاقة بين الانسان
واخيه الانسان ، ولكن جل حديثهم كان حول امور النساء
وجاهلن ، بشيء من الحبث او من الألم - وبين اللحظات يتسلمون
خلال الاشجار حيث الخوف يعمق في قلوبهم والظلام يكتنفهم .
قضيت ليلتين متواليتين معهم تحت سماء كالحة ، تضيئها نجوم
باهتة . وكنا نستلقي تحت شجرة شجرا مستدفئين بظلها ، وعن
قرب تحت ظلام وطب كانت اضواء الأفلاك تتسلل على سطح نهر
القولغا وكأنها عناكب ذهبية تمور .

وعلى طول فسيحة الشاطئ الاسود خيوط من الاضواء المبعثرة
تتلاعب من نوافذ وحانات قرية «أوسلن» الغنية ، وعجلات القوارب
التجارية تلتطم على الماء بصوت قاتم عاتم ، تنحبط في ماء النهر من
دون هوادة ، وتسمع عند آخر الشاطئ أصوات النوتين الحشنة
كأنها عواء ذئاب .

وفي مكان آخر من الشاطئ كانت المطرقة ترتطم على السندان
ومعها نغمات لموسيقى حزينة تنبعث من وراء الامواج ، وكأنها
روح امرى ، تنطفئ رويداً رويداً وترمي على القلوب رماداً حزيناً .

كان الحزن الذي امتلكني اروع حينما سمعت أحاديث رفاقي المنطلقة عن نقدهم للحياة ، وعما يحيط بقلوبهم من أسى وهم يدخنون أو يشربون من آن إلى آخر باعتياد ، وبشيء قليل من النهم ، «الفودكا» او «الجنة» ، يحاولون تناسي مصاعب آلامهم ، ورهبة ما تحتوي عليه ذاكرتهم .

وحين يأتي دور أحدهم في الكلام يقول هذه الجملة :

- حسناً . لقد حدث معي مثل هذا .

وعندما ينهي قصته ، كان الآخرون يدمدمون موافقين ،

ورجل بينهم يقول :

- نعم . أشياء من هذا القبيل تحدث كثيراً .

«حدثت .. ستحدث .. عادة تحدث .. من الممكن حدوثها» .

كانت هذه الكلمات تتلاطم في أذني ، حتى بدا لي ، كأن هذه

الليلة هي آخر ساعات حياتهم . تسير الحياة على وتيرة واحدة ،

حدث أو سوف يحدث أكثر من ذلك .

- ٦ -

المأوى التاريخي

كادت هذه الافكار تودي بي الى نسيان صديقيّ « بوشكين

وتروسوف » أو بالاحرى لأن أسلك طريقهما في خبرة الحياة ..

والامران اللذان فقدتهما في خضم أيامي ، واللذان كان بإمكانني

ان أسمو بهما ، وهما كمال الثقافة والاخلاق السامية ، خطا بي من
عل ، وافقداني طريقي ، او هدياني لأن اواصل السير الى جانب
صاحبي .

حين اجوع ، وأشعر بلذعة القلة أحس و كأني قادر على اقتراف
الجريمة او ضد « المؤسسة الملكية الخاصة المقدسة ! » ولكن حماسة
الشباب العاطفية هي التي حولت مأربي ، والتي كدت أركب
سبلها . و كنت ارى قصص « بورت هارت » الانسانية والاجتماعية
المختلفة التي قرأتها كثيراً ، واعجبت من نفائسها أيما اعجاب .

كنت أشكل طبقة أخرى من الأصحاب ، وأتلقى التأثيرات
الدافعة منهم .. طلاب في السنوات الأولى من جامعاتهم ، وغالباً
ما كانوا يتجمعون في الخربة القريبة من « بيت ايفرينوف » ليلعبوا
لعبة « الكولوتسكي » . ومن بينهم شاب متحمس يدعى « كوري
بلتيموف » له شعر أزرق وأسود كشعر اليابانيين ، ووجهه
بُعْثرت عليه نقاط سوداء صغيرة ، وكأن وجهه قد دُلك بالبارود .
وهو ماهر في لعبه ، لا يردعه رادع عن الملعب ، ذو نكتة
عذبة في حديثه ، وهو يشبه عباقرة الروس ... ذو ملكات عديدة
ويرضى بما وهبته الطبيعة دونما تعب او نصب . كان من عشاق
الموسيقى ، موهوباً بأذن حساسة وفهم بمجاهل الموسيقى .

يعزف على « الكوسلي » ... وعلى « البلايكا » وعلى
« الأوكورديون » ، ورغم ذلك - وهو يجيدها - لم يفكر في
ان يرتقي الى آلات اخرى اجمل واصعب . ومع ان ألبسته رثة

وقمصه ممزق ، وسرواله مرقّع ، وحذاؤه المتهدل على كعبيه ...
تبدو كلها جميلة تماماً حين يلمع ذكاؤه ، ويبين عقله ، وتنمو حركاته
الخفيفة على هيكله الهزيل .

كان يبدو ، وكأنه مريض قد عوفي من المرض ، او اسير اطلق
سراحه ، فعدت كل الاشياء التي يراها جديدة الى نظره ، حديثة
العهد به ، يثور ويسخط لأهون الامور ، وتراه يحوم بين صحبه
و كأنه حشرة تطن . وحين علم ان حياتي تشابه حياته بعض الشيء ،
واني بعيد كل البعد عن الاطمئنان ، حاول ان يفهمني بأنه يحبني ،
وقد عرض علي ان اقيم معه ، وادرس حتى اصبح معلماً في قرية .
وهكذا وجدت نفسي في « الماروسوفكا » المأوى الغريب
التاريخي الذي يعيش فيه الطلاب ، انصاف الجائعين ، وعدد من
المومسات ، اصف الى ذلك اشخاصاً من حطام الدنيا قدموا من
اقاصي الامكنة ، ويبدو لي انهم انما يعيشون بسبب من قلة الموت ..

- ٧ -

العالم المسلول

كان يقيم في غرفة صغيرة تحت السلم شاب يدعى « برت نيوت »
ولا يملك غير طاولة واحدة و كرسي واحد . وهناك ثلاث غرف
تطل الى جانب هذا البناء ، اثنتان للمومسات والثالثة لمعلم
رياضيات مسلول ، كان سابقاً طالباً في احد الاديرة ، يكاد طوله

الغريب يوعب . وعلى جسمه وبر حيوان احمر ، اما ثيابه فمزقة بالية تكاد لا تستر اضلاعه المعروقة البارزة العظم .

حين يراه المرء يقلم اظفاره بأسنانه ، يعتقد انه لا يملك طعاماً غير هذا ، وهو دائماً دائب على عمله ليل نهار ، لا يتوانى وهلة واحدة ، يعمل في علوم الحساب ورسومه ، كما كان مستمراً في سعاله البحيح العميق ، الذي يهزه هزاً . وكانت المومسات يخشين العدوى منه ، ولكنهن - ومن اجل الشفقة - يضعن له قرب بابه خبزاً وسكراً وشاياً ، فيلتقطها بلهث ممت ، كأنه حصان أضناه التعب . واذا نسين - او لسبب ما - ان يقدمن له قربانهن يقف عند عتبة غرفته ، ويصرخ بصوت أليم :

- طعام .. طعام ..

كانت عيناه الغارقتان في هوة مظلمة تبرقان كبريق المعتوه الذي يظن انه نال ما تمناه . وقد يزوره احدب بشع الهيئة ، ذو رجلين مقوستين وشعر رمادي ، على انفه المتورم نظارتان طبيبتان غليظتان ، ولا ترى الابتسامة تفارق شفثيه او تنحي من فمه ... يجلسان وحدهما بعد ان يوصدا الباب . وقد استيقظت ذات ليلة على صوت المعلم فسمعته يقول وهو يزأر :

- اني اقول حقاً ... الهندسة قفص ، انها سجن .. نعم انها

فخج ..

فاجابه الأحدب المشوه بكلمات لم افهمها لغرابتها وخفوتها ،

ثم سمعت المعلم يردد :

- اغرب عني ، او فاذهب الى الجحيم ..

وفيا كان الزائر يتراجع وسط القاعة ، كان المعلم يتأجج غضباً
فتارة يلف نفسه بالمعطف واخرى يشد شعره المشعث ويهتف قائلاً:
- ان اقليدس معتوه ، مجنون ! ، سابروهن لك ان الله اكبر
قدرة من هذا اليوناني .

ثم يدخل ليختفي بعد صفعه الباب . ولقد اكتشفت ان هذا
الرجل يحاول اثبات وجود الاله بواسطة الرياضيات العليا ...
ولكنه مات قبل ان يصل الى هدفه ...

كان بلتيموف يعمل في مكتب جريدة كمصحح مطبوعي ليلي
ويربح من هذا العمل احدى عشرة كوبيك عن كل ليلة . وبامكاننا
العيش من هذا الوفير حتى ولو لم اشتغل انا ، اذ يكفيننا اربع
أوقيات خبز ، وما يكفي اثنين من الشاي ، وثلاثة من السكر .
إن طلبي للعلم كلفني جهداً شاقاً ، وثباتاً مضمياً ، لأن علم
الأجرومية باجاثه المتفرعة ، عويص الفهم في اللغة الروسية ، وبعد
كل هذا الككل علمت مؤخراً اني وان نجحت في دراستي كمعلم
لقرية ، فلن اعين لسبب صغر سني .

كنت وبلتيموف في نفس الغرفة الحقيرة . هو ينام فيها في
النهار ، وانا في الليل ، وعندما يعود الى البيت باكراً وقد هدّه
العمل الليلي ، وشحب لونه ، وغارت عيناه في سهو عميق تعب ،
أهرع الى الحانة لأجلب له بعض الماء الساخن ، وبعدها نتناول
افطارنا من الحبز والشاي قرب النافذة .

من طبيعة كوري انه يطالع الجريدة الصباحية ، ويحفظ

الاشعار الفكاهية التي يكتبها محرر سكير ويوقع باسم « الماحوس الاحمر » ، غريب في فهمه الحياة ، ومعالجته لأُمُور الدنيا - هذا ما بدا لي - كما كانت المرأة « كالكيننا » ذات الوجه السمين ، والثياب النسائية القديمة .

لقد استأجر من هذه المرأة مسكنها الصغير تحت السلم . ولما لم يكن لديه المال الكافي ليدفع لها الأجرة ، كانت تسترحمه ليغنيها الاغاني العاطفية ، أو ليعزف لها بعض الموسيقى ، ونفسه حقوقه عليها .

كانت في السابق تعمل في « كورس الاوبرا » ، أي منذ اكثر من عشرين عاماً ، لهذا فقد تقدر اللحن والملمح ، وليس بالغريب عليها ان تبكي وترقع امام موسيقى كوري بدموع حرة ، وتسيل على خديها القرمزيين المنتفخين - علامات الادمان والشراسة - فتمسح الدموع من مآقيها بأصابع متورمة ثم تعرك أصابعها بمنديلها القذر . فكانت تهتف متنهدة : آه كوري ، كوري ! .. انك فنان حقيقي ، آه ! لو كنت اجمل من هذا ؟ لكنت زوّجْتُكَ - كما أزوَّج كل الشبان أمثالك - من احدى النساء اللاتي سئمْنَ الحياة وحدهن .

أحد هؤلاء الشبان - الذين تصطاد لهم كالكيننا زوجات - كان يعيش على السطح وهو شاب ، ذوقامة متوسطة و صدر عريض وخصر اهيف ، وقدمين صغيرتين كأقدام النساء ، ورأس أسود يضيّع بين كتفيه . له عينا خضراوان واسعتان ، وجهه شاحب ، وشعره جعد احمر لا حياة فيه ولا نظام .

ومع ذلك فانه نجح - بدراسة مجهدة وفائقة -- رغم ارادة والدته ، والتحق بالجامعة . وقد اكتشف ان في حنجرتة صوتاً قوياً ناعماً موسيقياً ، ففكر بتعلم الغناء .

اصطادت له كالكيما احدى (زبائنها) معتمدة على هذه الملكة التي يتحلى بها ؛ امرأة غنية من طبقة غنية ، عمرها يناهز الاربعين ، لها ابن في الصف الثالث للجامعة وابنة في عامها الدراسي الاخير . كانت المرأة ضخمة ، وصدرها متنفخاً ، تنتصب به كأنها الجندي . ولها وجه انعدمت فيه تقاطيع الحياة وكأنه وجه راهبة ، تغرق عيناها الرماديتان في لجة عميقة مظلمة . تلبس السواد دائماً ، وتحلي رأسها بنديل حريري من طراز عتيق ، وتجميل أذنيها بقرطين ذوي احجار خضراء سامة .

تأتي دوماً في منتصف الليل لتبحث عن حبيبها المنشود ، وقد تأتي باكرأ . وكنت اراقبها عن عمد وهي غارقة في الظلام تغدو وتروح في تألقها البشع ووجهها المخيف . لا نستطيع ان نسميها « قبيحة » ولكن مرضها - وهو ضغط الدم الزائد - هو الذي يشوهها .. وكان بليتموف يقول لي :

- انظر ، انها تشبه المجنونة في حركاتها .

ورغم كل المساعي التي تبذلها ، كان الطالب يكرهها ، وهي تلاحقه دونما ملل . فكان يقول بعد ان يكرع بعض الكؤوس ، وفي قوله أنة محرقة :

- اني رجل بائس يا صاحبي . لا اريد الغناء ، أنا بشع ، لن يسمحوا لي ان أقرب المسرح أبداً بوجهي هذا .

فينصحه بلتيموف :

- دع عنك هذه الحز عبلات .

- أعرف أنها ترهّات ، وأعرف أنها بشعة ولكني آسف لها .

لا أستطيع رؤيتها .. آه لو كنتما تديران كم هي ..!!.

كنا نعرف ما تعمل ، وكما سمعناها ليلاً وهي واقفة على درجات السطح تسترحمه قائلة :

- رحماك أيها القلب ، رحماك .

كانت صاحبة مصنع ضخمة وتملك الاطيان والخيول ، وتقدم «الروبيلات» للمساعدات المالية . ومع ذلك فانها تستجدي فتاتاً من الحب من هذا البائس المسكين .

بعد ساعة الافطار يغرق بلتيموف في نومه ، وأذهب انا باحثاً عن عمل ، ولا أعود إلا في ساعات متأخرة من المساء ، أي لما يحين وقت ذهابه الى المطبعة . وإذا اشتريت طعاماً - من خبز أو لحم مقدّد ، أو ربما أمعاء مسلوقة - نتقاسمه على عجل ليأخذ حصته معه .

وبعد أن يذهب ، كنت أتجول - متسلّياً - حول إيلاء روسكا ذلك القصر العظيم ، وأراقب بفضول حياة هؤلاء الاغنياء ، تلك الحياة الجديدة التي لم اختبرها بعد . فتوى البيت يعجّ بالساكنين . وكانت الروائح النتنة تنشر في أرجاء القصر ، وفي كل ركن تحتبئ بعض الحشرات ، اما الحياة فيه فانها دائبة من دون توقف . فألات الحياطة وتمازين البنات وهن يعملن على المسرح ، وصوت الطالب الناعم ، وصراخ أحد الممثلين المزعج

الذي أتلف حنجرته بالمشروبات الكحولية ، وأصوات المومسات
المستيرية الصاخبة . عندئذ كانت هذه الفكرة الطبيعية تنبثق من
عقلي لأقول :

— وما معنى كل هذا !! —

— ٨ —

هذا العجوز

يتجول رجل في القاعة دون أي هدف . شعره احمر بلون
الجزر ، وفي قمة رأسه تنتشر صلعة لماعة ، وبطنه تشبه الجرة ،
وفي وجهه فم ضخم فيه أسنان صفراء كأسنان الحصان ، لذا فانه
يلقب بالحصان الجزري اللون . دائماً يتشكى من بعض الاقارب
التجار في سيميرسك ، وكان يعلن لكل انسان يودّ الاصغاء اليه :
— لا أمل في حياتي إلا أن أربح هذه الدعوى ، وسأخرب
بيوتهم ، وسأظل كذلك حتى انفق آخر ما أملك . وسأجعلهم خاوي
الوفاض لا يملكون شروى نقيير ، يعيشون على الهبات . وبعدان
يعيشوا متجولين ثلاث سنوات سأعيد لهم كل ما كسبته منهم .
نعم ، سأعيد لهم كل شيء ، واقول لهم : اذهبوا الى الجحيم
يا أوغاد . هذا ما أنا فاعله .

فيسأله بعض السامعين :

— أليس لك في الحياة هدف آخر ؟

- كلا. ولقد كرست كل حياتي وقلبي لهذا، ولن افكر في سواه.
كان يقضي أيامه بين المحاكم العالية والمحلية، أو مكتب
المحامي، وعند المساء يعود الى بيته محملاً بالاكياس والجرادل
والزجاجات. وفي غرفة قدرة ذات سقف وارض فقط كان يحيي
حفلات صاخبة، داعياً الطلاب والمومسات وكل شخص يريد
طعاماً او شيئاً من الشراب، أما هو فلا يشرب غير « الروم »
حيث تندلق الزجاجات على ثيابه وعلى الحوان امامه فتصبغها
باللون الأرجواني القبيح. وبعد بضعة كؤوس لا يلبث ان
يصرخ :

- يا طيوري الصغيرة، اني أحبكم لأنكم الطبقة الشريفة التي
اعتبرها. أما أنا فرجل ساقط وتمساح. أحاول هدم بيت اقاري
بالذات، وانني لفاعل. نعم هذا هو املي في الحياة، ولكن !!
ومن عينيه الباكيتين كانت دموع المدمن تتحدر على وجهه
الغريب، فكان يمسح دموعه من على وجنتيه ليحفظه على ركبتيه.
كانت سراويله دائماً مغطاة ببقع شحمية، ويصرخ :

- أية حياة تعيشونها !! جياع يكاد البرد يقتلكم، وظهوركم
مغطاة بخرق بالية. أهذا حق؟ ماذا يمكنكم ان تتعلموا وانتم على
هذه الشاكلة تعيشون؟! آه لو يعرف القيصر كيف انتم تعيشون!
وكان يخرج من جيبه حفنة من الورق اللماع ويكرر :
- من منكم بحاجة الى المال؟. خذوه إن أردتم .. ها هو
يا أخواني، خذوه.

فتسرع بنات المسرح والمومسات، محاولات انتزاعها من

قبضته ذات الشعر الكثيف ، فيعترضهن قائلاً :
- انها ليست لكن ، انها تخص الطلاب .
ولكن الطلاب يأبون اخذها . فيجيبونه :
- ليذهب مالك الى الجحيم .

وفي احدى المرات التي كان فيها سكراناً جلب حفنة من
اوراق العشر روبلات لصاحبي بلتيموف وقد كورها بشكل
كرة مرصوفة ، وقذف بها على الطاولة قائلاً :
- الا تريدها ؟ .. انها لك .

ثم انحنى الى الامام وهو يشق بشكل جنوني حتى إنه ارغمنا
على قذفه بالماء ، وارغامه على شراب الروم . وعندما نام حاول
بلتيموف ان يمسد المال المكور ، ولكن كان ذلك مستحيلًا إذ
كانت الاوراق المالمية مضغوطة بقوة وقد أرغمنا على وضعها بالماء
برهة حتى استطعنا حلها بحذر .

كانت غرفته قدرة مملوءة بالدخان ، ونوافذها القائمة تخلع على
الجو كآبة ، وكأنها احلام مزعجة ، وكان دائماً يصرخ في صخب ،
فكنت أسأله :

- ما الذي حبيب اليك المعيشة هنا ؟ .. لماذا لا تسكن في
فندق نظيف ؟

- يا عزيز قلبي .. يا روحي ، إن روحي تشعر بالدفء معكم .
فيجيبه احدنا :

- نحن مثلك يا « ناك » ، اني اشعر بمثل شعورك ، فلو كنت
في مكان آخر لما استطعت العيش .

ويتقدم ناك من كوري ويرجوه.. فيبدأ كوري الانشاد ،
وآلته الموسيقية على ركبتيه :

« آه .. انهضي ايها الشمس الساطعة
واغمري السماء بلونك الاحمر » .

كان صوته الحنون يخترق القلوب ، والسكون منسدل على
الغرفة ، والجميع صامتون وكأن على رؤوسهم الطير، مصغون إلى
أناث وتر الكوسلي ، وتصرخ بلايكا :
- كم هذا جميل !! .. يا للعنة .

كان يلعب بلتيموف دور الملاك الرحيم بين سكان البيت
الغريبي الاطوار . إذ كانت روحه تشوبها حيوية الشباب ، تسطع
دائماً بفكاهات مرحة و اغانٍ جميلة . كان في العشرين ولا تزال
قامته كالطفل ، ورغم ذلك فقد كان يتكلم بحساسة عن ضعف
العدالة ، وكان سكان البيت ينظرون اليه كأنه ملهمهم حين يثنون
تحت عبء الحياة الصعب . والناس قسمان ، قسم طيب يحبه ،
وقسم يخافه ويخاف ان يخافه ، حتى الشرطي نيكي فورييج يبتسم
له ابتسامة كاذبة شحيحة كلما صادفه .

- ٩ -

المطبعة السرية

تمتد باحة الماروسوفكا إلى شارعين ، الاول « ريبنور رياض
سكاي » والثاني وهو أبعد من الاول قليلاً وأعلى « ستارو كو

رشيتهشنايا . وفي نهاية الشارع على مكان مرتفع يقف - لمراقبتنا -
نيكي فورييج .

هذا الشرطي طويل القامة ، عريض المنكبين ، وعلى صدره
أشرطة وأوسمة لامعة ، تبدر على وجهه المهارة ، وعليه أيضاً
ابتسامة حلوة كالعسل ، وعينان عميقتان . وكثيراً ما يطل بوجهه
العبوس على بوابتنا ، ويتقدم ببطء متلصصاً من كل نافذة كأنه
حارس في حديقة حيوانات يدور على أقصاه .

وقد أوقف هذا الشرطي اثنين من جيراننا . « سمير ينوف »
وهو ضابط بذراع واحدة . و « موراتوف » وهو جندي عادي . كلاهما
اشترك في حملة آخالتيكي تحت قيادة سكوبيليف ، وقد حملا وسام
القديس جورج ، واتهما مع زوبنين وفزيانكين ، وكريلوف
وآخرين بمحاولة تأسيس مطبعة سرية . ولهذا فقد حاول مولوتوف
وسمير ينوف أن يسرقا بعض أحرف الطباعة من مطبعة « كليو
شنيكوف » الكائنة في أكثر شوارع المدينة نشاطاً ، ولكن ألقى
القبض عليهما هناك .

وقد ألقى رجال الدرك في إحدى الليالي القبض على رجل اسم
اللون طويل القامة لقمّته بالبرج المتجول . وقال لي بلتيموف وهو
يرمي بشعره الاسمر الى الخلف بتأثر ظاهر :

- انتبه يا مكسيميتش .. يا للشيطان ، عجل بالهرب قدر
استطاعتك .

وبعد ما شرح لي إلى أين يجب أن أهرب أضاف :
- انتبه فقط ، ولربما يحوم الجواسيس حولك الآن .

سررتُ تماماً من هذه البعثة الغامضة ، وانطلقت بسرعة الطير
الى حي الاميرالية ، وهناك في حانوت نحاس مظلم وجدت شاباً
ذا شعر مجعد ، وعينين زرقاوين آية بالجمال ، يشتغل بصنع مقلاة
نحاسية - ولا تبدو عليه سياء العمال الكادحة !

وفي الركن البعيد يجلس رجل مسن ، شعره الابيض مربوط
الى الخلف بخيط من الجلد ، يصلح صنبور الماء ، فسأله :
- هل من عمل هنا ؟ ..

فأجاب النحاس بشيء من العنجهية :

- نعم ، عمل كثير ، ولكنه ليس لك .

والقى الشاب علي نظرة سريعة ، ثم أحنى رأسه على عمله من
جديد . وبسرعة غمزت قدمه بقدمي ، فاستدار نحوي بعينه
الزرقاوين بذهول وغضب ، ممسكاً مقلاته النحاسية من مقبضها ،
وكأنه على وشك ان يرميها على رأسي ، وعندما لمحني بشكلي
الانيس قال بهدوء :

- أخرج .. أخرج .

فغمزته ثانية وغادرت الحانوت . وانتظرته قرب الباب لحظة ،
خرج بعدها يتمطى وتبعني . وبعد أن أشعل لفافة ، التفت إلي
منتظراً كلامي . فسأله :

- هل انت تيهون ؟

- .. نعم .

- لقد أوقف بيوتورس .

فقطب ما بين حاجبيه وقال :

— عم تتحدث ؟ .. أي بيوتورس هذا ؟ ..

— شخص طويل جداً ، كأنه القسيس .

— حسناً ! .. وبعد ؟

— هذا كل ما هنالك .

— وما دخل بيوتورس القسيس ، وكل باقي انشودتك

بالنسبة لي ؟ ..

فعلمت من نظرتة وتساؤله انه ليس بالهين ، فهرعت الى البيت
فخوراً في نقل ما طلب مني بلتيموف . وهذه الحادثة هي اول مرة
اشترك فيها في اعمال التآمر .

كان صديقي مشتركاً فيها ، وعندما كنت اطلب منه ان
يفيدني عن مبادئها يقول :

— لا زلت يافعاً صغير السن يا اخي ، وما عليك الآن الا
ان تنكبّ على كتبك .

وقد طلبت من صديقي ايفرينوف ان يعرفني على شخصية
هامّة وطالبتة بهذا مرات إلى ان اخذني الى لارسكولية بولية
وهو في حقل واسع خارج حدود المدينة ، قائلاً بأن التعارف يجب
ان يكون محاطاً بهالة من السر ، ثم اشار باصبعه الى مكان ناء ،
وسرنا قاصدينه ، عبر الحقول المهجورة . ثم همس قائلاً :

— هاهو ذا ، إتبعه ، وعندما يقف اقرب منه وقل : اني من
خارج المدينة .

المركب المحطم

مع ان الاشياء الغامضة تبدو جذابة عادة ، فانها مع ذلك بدت لي سخيفة الى ابعد حدود . كهذا الذي يتأرجح عن شمال ويمن ، كأنه حزمة من أعشاب يابسة في حقل معشوشب .

وجدت نفسي أمام شبح صغير الهامة نحيفها ، غارق العينين مستديرها ، يرتدي ثوباً موحداً لطلاب العام الاول في الجامعة ، تلاحظ الانقباض بادياً على شكله ، وعلى قبعته بقعة غبراء كانت منذ أعوام إشارة الجامعة .

وجلسنا بين القبور تحت ظلال شجرة ملتفة خضراء ، وتجادبنا اطراف الاحاديث التافهة التي تدعو للملل والاعياء . ثم سألتني فيما اذا كنت ارغب بالانتساب الى جمعية اسمها هو ، بعد ان علم مني مدى حبي وتطلعي الى الدراسة . ثم افترقنا بعد الاتفاق ، وراح كل واحد منا الى وجهته .

اما هذه الجماعة التي تحدث عنها فلم تكن سوى خمسة اعضاء ، وكنت اصغرهم سناً ، واقلهم في ملاذ الدراسة علماً ، وخاصة عندما يتباحثون عن ستوارت ميل ، أو تعليقات تشيرني تشيفسكي . اما اجتماعاتنا فكانت في بيت ميلوفيسكي الطالب في الصف الثاني للجامعة ثم اصبحت كاتب قصص قصيرة يوقعها بالاسم «بيليفسكي» المستعار ، وقد انتحر بعد ان أكمل مؤلفاته الخمسة ونشرها . « وكم

من الاحرار قد غادروا الحياة بملء ارادتهم ! »
كان ميلوفيسكي هادئاً وخجولاً في تفكيره وحذراً ذليلاً في حديثه ، يعيش في كهف حقير ، ويعمل في حانوت نجار ، ورفقته غير مسلية .

لم أستطع فهم كتاب ميل ولا نظرياته ، ولكن بعد مدة وجيزة بدت سهلة للغاية حتى اجرها بنفسي وعلى نفسي ، وادركت ان المرء لا يحتاج الى كتاب ضخم صعب الفهم عويصه ، انما يحتاج الى كتاب بسيط مفهوم لدى كل قارئ .

وانه لمن الشاق تماماً علي ان اجلس جلسة صاحي في ذلك المكان المنخفض الذي يعمل فيه اكثر ساعات يومه ، متنفساً رائحة غراء النجار ، ومراقباً الحشرات وهي تزحف على الحشب المتآكل لتخره . ومع كل هذا فاني قبلت العمل معه .

وفي صباح احد الايام لم يحضر معلمنا في وقته المعين ، فظننا انه لن يأتي يومها ، فاحتفلنا بساعة راحة أكلنا فيها خبزاً وخياراً وشربنا زجاجة من الفودكا ، وفيما نحن في مرحنا اذ بأقدام صاحب المعمل تبين من شق النافذة . وبسرعة اخفيينا الزجاجة تحت الطاولة وجلسنا جامدين مشدوهين خشية أن يقلب احدنا الزجاجة بقدمه ، واخيراً قلبها معلمنا ! وعندما سمع صوتها احمر وجهه غضباً ولم ينبس ببنت شفة ، وكما كنا نودّ ان يجابهنا بالسباب والشتم .

وقد اقلقني وحزّ في نفسي سكوته ، بوجهه القاتم وجرحه المندمل المرتجف على جبينه . وتطلعت الى وجوه رفاقي الحمرة خجلاً ، فقد كانوا يشعرون شعور المجرم الاثيم نحو رئيسهم . وفي

الحق ، فقد كنت أسفاً مع اني لم أكن من مريدي الفودكا .
وكم كنت اتجول بعد الانصراف في شوارع التتار حيث
الناس بسطاء ويعيشون حياتهم برغبة وحب ، وكانت لهجتهم
مضحكة إلى أبعد حد . وعندما يهبط الليل كنت تسمع نداء
المؤذنين على المآذن العالية ، داعية إياهم الى الصلاة جماعة . وتحالف
هذه الحياة - تمام الاختلاف - الحياة التي أحياها والتي عجزت
عن السعادي .

كنت اروح لأجد في ضوضاء نهر الفولغا تلك الموسيقى
المتصاعدة بخشونة من النوتتين الذين يشقون المياه بجاذيفهم او
يحملون الاحمال الى السفن . وسأبقى متذكراً دائماً قصائدكم التي
يتغنون بها اثناء العمل .

هناك مركب يحمل بضائع فارسية قذف على صخر قرب
قازان ، فاصابه العطب ، فاستعدت سفينة لاعانة اصحابه
ونقل محموله . كان ذلك في شهر ايلول . الرياح عاتية تشاركه
الامطار والبرد في صليلها ، والامواج تشور وتعج بوجه الرياح .
فاتجهنا صوب المركب المنكوب في مثل هذه الظروف الجوية
السيئة .

هبط الظلام مصحوباً بسماء ثقيلة الغيوم ، وقد ظلمت ماء
النهر بأجمعه ، وكان النوتيون يلغنون المطر والرياح . وهذه
الحياة ايضاً . وقد رأيتهم يهرعون الى اماكن امينة على السفينة
يتحصنون بها من غلواء الطبيعة حتى يصلوا الى الشاطئ الضحل
لينقذوا المركب المحمل . وقد شاركته انسانيته ، ورحلت

معهم محدثاً نفسي عنهم انه ليس بمقدورهم الثبات على العمل ، ذلك
لأنهم - على ما ظننت - يرهبون العمل ، ويجبون النوم .
قبطانهم رجل مسن ، وجهه مليء بآثار الجدري ولا يفتأ
لسانه يتحرك بكلمات وقحة كشكله المرعب ، وله عينان كعيني
خنفساء ، وأنف كأنفها .

وبعد أن وصلوا الى السفينة الغريق صاح الربان بصوت
عال انشوي :

- الصلاة يا أولاد .

فهرعوا يتجمعون كأنهم كتلة واحدة في ظلام دامس مدلمهم
واخذوا في الصلاة . وحالما انتهى الربان من صلاته هتف :

- المصابيح ... وأروني صبركم على العمل ، والله وليكم .

فقدفوا بانفسهم الى السفينة المغرقة ، ووصلوا الى داخلها وهم
مبللون بالمطر . وقد اظهروا قوة خارقة بجلدة كأنهم في معركة
راجمة مستميتة . ولم تمض لحظات حتى شرعت اكياس الارز
والزيب تتطاير في الهواء لتصل الى سفينتنا . وكانوا يستثيرونهم
بعضهم البعض ... بكلام او سباب او مزاح .

كان من الصعب علي فهم بعض الاشخاص الذين كانوا يتأوهون
برداً ويشكون الحياة وقد انقلبوا كأنهم ليوث الشرى لا يتف
امامهم حائل .

أخذ البرد يشتد والمطر يزداد ، والريح تولول بقوة ، فتطيح
بأثوابنا عن اجسادنا ، ورغم ذلك كله ترى الاشباح تسير بسرعة من
هنا الى هناك ، متنقلة من سفينة الى اخرى ، والكل يعملون من دون

ملل ، بل كأنهم يمرحون ، واخذوا يحملون الاكياس ويتناقضونها
بالايدي ، او يركضون وراء الطرود ، وتحسبهم يلعبون لعب
الاطفال المتحمسين ، او يرون لذة العمل اجمل من لذة هصرهم
المرأة بين اذرعهم .

ومن بينهم رجل ضخيم ذو حلية كثة ، يلبس جلباباً قصيراً
مبيللاً بالماء - ربما كان صاحب المركب او وكيله - يصرخ بأعلى
صوته :

- ايها الزملاء .. انجزوا العمل ولكم المكافأة .

وكان يساومهم ويساومونه ، فيقبل بما يطلبون :

- لكم ما شئتم ، شريطة اسراعكم بالعمل .

فيهبون على العمل بأيد فولاذية ونشاط وغبطة . وانا نفسي
كنت اعاونهم بالعمل ، اجرّ الاكياس تاركاً واحداً صاحباً
الآخر . وقد بدا لي ولزملائي كأننا نرقص رقصة جنونية وحشية ،
وكنت متعجباً من نشاطهم ، موقناً من انهم لو وضعوا ايديهم على
ابراج الكنائس او مآذن المساجد هزوها هزاً ، او طلب اليهم
ان يزيحوا مدينة باسرها لأزاحوها الى حيث يرغبون .

كنت احلم بجلاوة هذه الليلة الهائجة الاليفة والتي لم اتذوق
مثيلها حتى الآن ، وقد استعرت في فؤادي الرغبة في اقتناص لذة
العمل - وكانت الامواج تحتنا تتراقص في سيرها ، والمطر من
فوقنا في تهطال مستمر على ظهر السفينة ، والريح تنن بيننا وبين
الموج من كل جانب .

بان العمال من طيات الشفق الاحمر الرمادي باكراً يواصلون

جدهم وتسابقهم ، صارخين ضاحكين ، وكأنهم يمشون مجرد القوة والعمل . وبعد ان امتد اللون اللامع اللازوردي شاطراً وجه الصباح ، انشقت الغيوم ، وانفجرت السماء عن شمس وهاجة انارت الدنيا بنورها الألائق فرحّب بها الرجال هاتفين ، وشعرهم قد تهدل على ذقونهم فتشككت حول وجوههم هالات من الندى الماطر ..

هذه القوة الطامحة ، وهذا البأس المستبعد في كل آونة ، بإمكانها ان يصنعا المعجزات على الارض ، وبإمكانها بناء مدن وقصور سحرية كأنها من فعل المردة والشياطين . ولم تض برهة اخرى حتى ازداد شعاع الشمس تبسّماً حاثّاً اياهم على العمل ، ثم عاد الغيم الى الانطباق بعد ساعة ، فيسأم احدهم هذا الموقف ويصرخ :
- اطلبوا ايقاف العمل ايها الرجال .. لقد تعبنا .

فيجيبه احدهم بعنف :

- من يقول بايقاف العمل ؟

وظل الرجال يعملون دون هوادة ، تحت وابل المطر ، وفي ثنايا الريح القارسة الى الساعة الثانية بعد الظهر الى ان تم انقضاء آخر جولتي من السفينة . وقد طبعوا في قلبي حباً لهم ولقوتهم ، وتطوعاً لمشاركتهم في هذا العمل الانساني .

ولما انتهى الجميع غطوا في نوم عميق بثيابهم المبللة على ظهر سفينتهم ، وهي تتابع طريقها - وانا معهم - الى قازان ، ولما وصلناها رسونا على الضفة الرملية واتجهنا شطر الحانة كي نشرب شيئاً من الفودكا . وصادفت هناك صاحبي اللص بوشكين فقال لي :

— ما الذي فعله بك الزمان ؟ .. ماذا صنعوا بك ؟ ..
واخبرته بانذفاعي نحو العمل ، فاصغى متنهداً واجاب :
— يا لك من ابله . بل وأكثر من ابله .. يا غبي ..
ثم تركني وانساق بين صفوف الجالسين يصفر لحناً ، فشاركه
معنّ بالاحن ، الى ان بدأ يغني لنفسه اغنية داعرة :
« حدث ذلك في منتصف ليلة ليلاء
كانت سيدة تتمشى في حديقتها »
ويردد غناءه البهارة ، ضاربين بأكفهم على المنصات هائجين :
« الحارس ... قد سرى خلال الليل
وشاهدنا منظرأً عجباً ... »
فاستجابت لقوله صرخات داوية ، مع صفير حاد ، تجيبه
بكلمات تساوي الشعر وقاحة وتساويه تجاسراً مقدعاً .

— ١١ —

الندوة السرية

لقد تعرفت بأندرية دورينكوف صاحب حانوت سمانة صغير
كائن في طرف شارع ضيق عتيق . كان هذا صغير الحجم ، ذا وجه
مجعد محاط باطار من لحية شقراء ، وله عينان تمنّان عن بعض
النباهة ، ويمتلك اثني مكتبة في قازان كلها ، تحتوي على كتب
ممنوعة وكتب نادرة ، مجموعة يقرأها طلاب المدينة من مختلف

مدارسهم ، ويطالها كل شخص يميل الى الثورة الاجتماعية الحديثة .
محله الى جانب بيت حقيير لأحد السكوبيتس وهم ينتسبون الى
جماعة دينية ، يساعدون الناس بما لهم لقاء فائدة باهظة . وبداخل
الخانوت باب قصير يقود الى غرفة كبيرة تكاد تضاء بنافذة واحدة
تطل على الباحة ، وتؤدي هذه الغرفة الى مطبخ حقيير ، والى
جانب هذا المطبخ في زاوية مظلمة توجد خزانة صغيرة يضع فيها
الكتب ..

بعض هذه الكتب منسوخة باليد ، وهي عبارة عن مذكرات
كشيفة مثل الرسائل التاريخية « للافروف » وماذا يجب عمله
« لشيرني » وعدة مقالات بقلم « بيزاريف » وكل هذه النسخ
الخطية يقرأونها بشغف زائد .

وعندما وصلت الى الخانوت كان دورينكوف منهمكاً بالبيع
مع بعض الزبائن ، فأومأ لي بأن ادخل الباب القصير . وعندما
دخلت الغرفة الواسعة المظلمة ، شاهدت رجلاً مسنناً جاثياً على
ركبتيه في الزاوية أمام إحدى الصور يصلي لها ويتضرع اليها
بحرارة . ذكرني ذلك الموقف بلوحة لـ « سيرافين » ناسك
سارووث ، وعندما وقفت انظر اليه اعتراني شعور بالتناقض
الصعب لم افهمه .. وان كنت اريد ان افهمه .

لقد وُصف لي دورينكوف نارودينكي بانه رجل « ثورة » ..
وعلى رجل الثورة الا يؤمن بخالقه ، ولكن بدا لي انه ورع
ومحب لدينه . وعندما انتهى الرجل من صلاته مسح على شعره
وذقنه ثم تطلع اليّ بقساوة وقال :

— اني والد اندريه .. ومن انت ؟ .. ها ، أظنك طالباً متخفياً ؟ ..

— وما السبب الذي يجعل الطالب يتخفى ؟

— هذا ما يحدث الآن . وعلى كل مهما تخفيت فان الله يعرفك ابداً .

ثم دخل الى المطبخ ، فجلست بجانب النافذة ، وانهمكت بالتفكير . وفجأة سمعت صوتاً يقول :

— لماذا انت خائف ! .. هل شكلي مرعب الى هذا الحد ايها الغريب ؟ ..

كان صوتها رقيقاً ، وفيه بعض الرقة . ثم تقدمت مني ببطء وحذر تتكىء على الحائط كأن الارض تميد من تحت قدميها ، او كأنها تسير على حبل بهلواني يتأرجح فوق هوة سحيقة . تعثرها هذا واستمسكها بالتأني زادها شهاً بالملائكة .

ان جسمها يترنج ويرتجف كأن ابر النحل قد وخزت كعبيها ، فوفقت امامها مشدوهاً مستغرباً ما ارى ، مشفقاً عليها .. « يا للعجب ! كل شيء في هذه الفتاة غريب » .

فجلست الفتاة على كرسي الى جانبها بجذر ، وكأنها تخشى ان يطير من تحتها او تبتلعها الارض ، واخبرتني ببساطة وانشراح لم لاحظها على فتاة غيرها قط ، انها كانت مقعدة ، ولم تأخذ بجركتها هذه الا منذ الايام الاربعة او الخمسة الاخيرة بعد ان فقدت حركة أطرافها السفلية ، وظلت طريحة الفراش ما يقرب من ثلاثة اشهر او يزيد . ثم قالت مبتسمة :

— الحقيقة انه نوع من الامراض العصبية .

كم كنت أود ان تشرح لي سوء حالتها بشكل كامل . فان
المرض العصبي هو شيء غير عادي بالنسبة لفتاة مثلها في ربيع العمر
وفي غرفة غريبة هادئة كهذه ايضاً ، غرفة تنم عن فقر مدقع ،
وعن يأس من الحياة ، وذلك النبزاس المشتعل امام الايقونة الخلوة
قد اظلل بسلاسله النحاسية الصفراء ملاءة المنضدة الواسعة . ثم
واصلت الفتاة حديثها بصوتها الناعم الأنيق الجذاب :

— لقد سمعت عنك كثيراً .. و اردت ان اراك امامي لأشبع
من رؤيتك .

فشعرت بشيء من الاضطراب في نظرات هذه الفتاة اللامعة
من خلف ستار عينيها الحالك ، واحسست ان في نفسها امرأ يصعب
تفسيره ، حتى لكأنها تقرأ ما في صميم ذاتي من خبايا وخفايا . فلم
استطع ان اجيبها على كلامها ولا بحرف واحد . ووقفت صامداً
في وسط الغرفة محملاً في ارجائها احاول ترجية الوقت بالنظر الى
بعض صور العظماء المعلقة على الجدران كرسوم هرزان وداروين
وغاريبالدي . ثم تقدم مناساب في مثل سني ، له نظرة ساخرة ،
وقال للفتاة :

— ماذا تعملين هنا يا ماريما ؟

فأخبرتني الفتاة بأن هذا هو أليكسي اصغر اخوتها . و اضافت
قائلة بأنها — ، لولا مرضها لما توقفت عن دراسة التوليد .. ثم
سألني قائلة :

— لماذا لا تتكلم يا صاحبي شيئاً ...! أخجل انت ؟ ..

فدخل اندريه مبتسماً واقترّب من اخته ماراً بيده على شعرها
مداغباً اياها بكثير من العطف والحنان . واخذ يسألني عن نوع
العمل الذي كنت ابحث عنه . وبعد لحظة ظهرت بالباب فتاة
ممشوقة القد يرنح الصبا عطفها ، ذات شعر أحمر مقصوص ، وعينين
خضراوين . نظرت اليها بامعان زائد ولمدة ليست قليلة ، وتقدمت
من (ماريا) واقتربتها الى خارج الغرفة قائلة لها بصوت خفيف :
— يكفي هذا ماريا .

وبعد ذهابها تركت المكان مضطرباً اضطراباً لم اعهد في
نفسي من قبل .

ولم يمض يومان على ذلك الحادث حتى الفيت ' نفسي منساقاً الى
نفس المكان لاستيقاقي الى الحياة التي يحياها هؤلاء الناس في ذلك
المكان . كل شيء في هذه الدار غريب حتى الرجل الوقور ستيبان
ايفانوفيتش القريب من القلب ، ذو الشعر الابيض الشاحب كأنه
زجاج شفاف ، يجلس في زاوية الغرفة ويبتسم لي برفق ورقة
محر كماً شفتيه الداكنتين .

تراه وكأنه في خوف دائم من ان يصاب العالم بمصيبة اليمة . .
يبدو هذا على وجهه تماماً ، وحين دخلت الغرفة كان
اندريه يتجول في الغرفة وعلى فمه ابتسامة بريئة ، اما اخوه اليكسي
فشاب كسول حديدي الساعدين قوي الكتفين اما الثالث ايفان
فطالب في دار المعلمين لا يأتي الى دار اهله الا ايام الاحاد والعطل
لأنه طالب داخلي يعيش في مدرسته . هذا الأخ — ايفان — انيق
التياب ، مسرح الشعر الى الخلف ، ملء برديه روح الشبيبة الناهضة .

اما ماريافانها تقطن غرفة على السطح وقلمها تنزل منها . واحياناً
تقدم اليها فاشعر لساعتها بشيء من القلق الملح حتى الكأني مصفد
بأربطة وهمية تشل من حركتي .

كان ينظم امور البيت ، ويدير شئون العائلة امرأة طويلة
نحيلة ، ذات وجه كوجه الدمى الخشبية ، ولها عينان جامدتان
كأنهما عينا راهبة يائسة من حياتها ، وتعيش في الدار المجاورة عند
اسيادها السكو بيتس وتساعدهم في الطهي والتنظيف وتشاركها
في العمل ابنتها ذات الشعر الكعكي الاحمر ، والمقصود الى الخلف
كشعر العذارى الناضجات نضوج الكمثرى .

وعندما تلاحظ ناسيتا - تلك الصبية الناضجة - خيال شاب
تلمع عيناها الخضراوان وتبرقان في توهج ورغبة .

اما اسياد هذا البيت الحقيقيون فهم طلاب من الجامعة ، من
الأكاديمية اللاهوتية ، من معهد البيطرة .. مجموعة من الشباب
المتطلع الصاحب ، مملوؤون بالشعور الطيب نحو شعبهم الروسي ،
وكلهم قلقون على مستقبل وطنهم . وتدفعهم الى الثورة الصحف
اليومية المتحررة او الكتب الحديثة او حوادث الجامعة .

وكانوا يهرعون الى حانوت دورينكوف كل مساء من كل
أرجاء مدينة قازان ، ويخوضون في مجادلات عنيفة لصالح الوطن ،
او يتهايمسون بهدوء داخل الغرفة ومعهم كتب ضخمة تهدف
الى اعتناق الحقيقة الثائرة .

لم أفهم من هذه المناقشات الا القليل لأن سرعتهم الزائدة في

سرد الكلام كانت 'تضيع علي' فحوى المناقشة ، كما تغيب ذرات
الدهن في حساء الفقير . وكان بعضهم يبدو كهيئات رجال الدين
ذوي اللحى الرمادية الذين يمثلون الطوائف الدينية المتعددة على
طول نهر الفولغا . وقد تحققت بانهم يهدفون لتحسين الحياة
ومخلصون في مطلبهم . ولكنني كنت افقد حلاوة الحديث في
وابل كلامهم الفياض - ومن الواضح لي ان كل الامور التي
يحاولون حلها غائرة في اعماق ذاتي ورغبتني جاححة لمشاركتهم
في حلها .

و كنت انظر اليهم نظرة الاسير الى صاحب قيده ، ومن
دون ان اسار كههم في الكلام كان صدى تفكيري يعاضدهم في
ذلك . اما نظرتهم لي فانها كنظرة النجار الفنان الذي يرى قطعة
من الخشب وهو يشعر ان بإمكانه ان يجعل منها شيئاً مرغوباً
باهراً ، وحين يقدمني احدهم الى غريب يقول :

- اقدم لك عبقرية « فطرية » !

كان يقول كلمة « فطرية » بنفس الفخر الذي يحسه جائع
محب لقطعة من النقود لا يريد ان يدعها تسير الى يد البائع . لم
احب هذا اللقب كما اني كنت اثور من الاتجاه الذي يوجهني له
هؤلاء الشباب .

كنت مرة ماراً يوماً من امام احدى المكتبات فلفت نظري
كتاب « حقائق وأمثال » ومع انني لم افهم مغزى هاتين الكلمتين
فقد اعتراني شوق طاغ لقراءته ، فطلبت من احد طلاب الاكاديمية
اللاهوتية ان يعيرني اياه ، ولكن كان جواب استقف المستقبل

وهو شاب ذو رأس كـرأس العبيد ، وشعر مشعث مجعد ، شفتاه غليظتان . . واسنانه ناصعة البياض :

— ان هذا لسخافة يا أخي !.. يجب ان تقرأ ما تستطيع فهمه فتنط ، ولا تحشر في دماغك ما هو أعلى من ثقافتك .

فلدغنتني صراحته معي في الصميم ، وتركته لأشتري الكتاب من مالي الخاص . واني ما زلت محتفظاً به إذ انه اصدق كتاب قرأته في حياتي . وبعد قراءتي البجدية العلوم الاجتماعية ، شعرت ان المؤلف يعطي قبائل الرعاة أهمية فائقة ، ويدع الصيادين الرحل المغامرين في بحر الظلام المجهول . وعندما عبرت عن شعوري لطالب في لولوجيا ظل ساعة يعظني عن كيفية نقد النظريات والكتب ، وقد قال :

— كي يكون للمرء نقد نزيه يجب ان يؤمن بالحقيقة الواقعة ، فما هي الحقيقة التي تؤمن بها انت ؟

كان هذا الطالب مغرماً بمطالعاته الزهمة . حتى انه ليقرأ في الشارع . وغالباً ما اصادفه وهو دافن وجهه بين دفتي كتاب يكاد يصطدم بالمارين . وعندما اصاب بمرض التيفوس بدأ يهمهم فاقد الوعي :

— الاخلاق ، يجب أن تهذب وتنسق ، يجب ان يُعتمد على عناصر الحرية والارغام .

كان هذا الشاب ذا قلب طيب ، ضعيف البنية بسبب من قلة التغذية وقد حاول المستحيل ليستفسر عن صاحب اخلص من الكتاب فلم يجد . كانت عيناه السوداوان تشعان ببريق ابتسامة

طفل سعيد ، ثم افترقنا .

وبعد بضع سنوات على تعارفنا الاول في قازان ، قابلته كرة ثانية في كاركوف حيث كان يواصل دراسته الجامعية بعد مرور خمس سنوات قضاهها نفيًا في كيم ، وفي تلك الايام اصيب بسل سميت جعله يبصق دماً ، وقد حاول ان يوفق ما بين نيتشه وماركس فكان يمسك يدي بين كفيه الهزيلتين ويقول :

— لا حياة من دون عمل مفيد يا صاحبي .

واخيراً توفاه الله في سيارة أجرة فيما هو ذاهب الى الجامعة . .
لقد قابلت اكثر من شهيد كهذا ، من خدام قضية العقل .
وإني لمحتفظ بذكر اهم المتدسة . . منهم مجموعة من البشر كانوا يجتمعون في بيت دورينكوف معنا . حتى إني وجدت معنا في هذه الاجتماعات — غير الشاب الياباني المسمى بانتيلمون ساتو ، الطالب في الاكاديمية اللاهوتية — شخصاً عريض المنكبين ، ذا رأس حليق كرأس التتار ، ولحية كثة مرسلة على جانبي فكه . يرتدي ثياباً ضيقة ، ويلتف رداؤه الرمادي على جسمه فيكاد لا يستطيع فيه حركة ، ويرفع ياقته الى ما فوق ذقنه فيخفي نصف وجهه . كان من عادته أن يجلس متطرفاً ، يدخن غليونه القصير ، بمعناً النظر في الموجودين امامه . وكانت نظراته المحدقة هذه ، فيها كثير من معاني الانتباه . وكلم من مرة لاحظت عليه ، وقد ركز ناظريه نحوي ، أنه يزينني بمقياس تفكيره العميق . فأخشاه وأخشى نظراته . وأشد ما يذهلني منه سكوته الطويل وانقطاعه عن الكلام ، مع ان الجميع في حديث زائد وعال ايضاً ، ولكنني

فهمت من بعض كلمات صائبة تفوه بها ما يحتوي انطـواؤه من
أفكار خبيثة يخفيها ستار من السكوت .

كان الرواد يسمونه خوخول . ولا احد - على ما اعتقد -
يعرف اسمه الحقيقي غير اندريه . وعلمت بعد مدة انه قضى عشرة
أعوام نفيًا في باكو تسك ، وهذا ما زاد من اهتمامي به ، ولكن
لم تكن هذه المعرفة لتشجعني إلى التزلف اليه . ولم اكن يوماً من
المصابين بداء الحجل والجبن ، إنما شغفي وحب تطلعي جرفاني
لمعرفة كل امر ، مما جعلني مدى حياتي أدرس كل مجهول بعمق ،
ودائماً تراني منصتاً الى الناس ولكن بتأن وهودة .

وعندما كانوا يتحدثون عن الشعب ، كنت أصغي متعجباً من
صراحتهم ، غير واثق من قوتي في المجادلة رغم ان تعليقاتي الخاصة
عليها كانت - كما أظن - جديرة بالتقدير ، مع انها تنحرف كل
الانحراف عن تيار مناقشتهم . إذ انهم يجعلون الشعب صاحب
حكمة ورأفة ، ويملك الجمال الروحي حتى لقد قاربوا الى ان
يؤلهوه . وقد هدفوا الى ان الشعب يملك العلو والعدل والعظمة .
ولكني - وإن كنت أعيش بين الشعب - لم اشعر شعورهم قط .
إذ ان من جيران النوتي او البناء ، باكوف ، اوزيب ، او غريغوري ،
وكلهم مختلطون في الحياة . أما هم فيقولون ان الشعب وحدة لا
تتجزأ لقد . خطوا من قدرهم لأجله ، واعتبروا أنفسهم خاضعين
لارادته وسيطرته . وأنا اقول لنفسي بأن هؤلاء المتحدثين
هم اصحاب العقل والعظمة والعدل ، لأن في افئدتهم شعلة تضطرم ،
وإرادة قوية حارة تتأجج ، وغيره لبناء حياة حرة ، تعتلج أسسها

على حب الانسانية الصارخ .

لم ألاحظ قط بين هذه المخلوقات البسيطة التي عشت معها وبين
ظهرانيها هذا الحب الذي يصفه اولئك الوطنيون وذوو المبادئ
السامية التي تقرر في كل آن وتسطع مع أي لحظة . كان حديثهم
يتساقط على قلبي برداً وسلاماً ، ولقد ساعدني كثيراً ، بل واعاد
علي تلك القراءات الساذجة عن حياة الريف المظلمة ، وعلى الاخص
صمود الفلاح بين دياجير القحط والفساد . فابتدأت اشعر ان المرء
لا يستطيع ان يفهم معنى الحياة الحقيقي إلا اذا كان في قلبه حب
قوي متأصل للانسانية السمحة ، ومن تلك الآونة شرعت انتقبه
نحو الآخرين اكثر من انتباهي لنفسي .

- ١٢ -

عنده حبيبة

شرح لي أندريه بأنه صرف دخل حانوته الضئيل بأكمله لمساعدة
المؤمنين بالايمان الجديد : « سعادة الشعب فوق الجميع » . وحين
يقف معنا في الغرفة يبدو كأنه عامل بسيط في كنيسة بسيطة .
وهو يصغي الى محادثات أعظم رجال الدين ، ولم يكن ليخفي
اعجابه من حكمة الكتاب الذين يكتبون في هذا العصر .
وكان في وجهه شعلة ابتسامة دائمة حين يصادفني ، فيسألني وهو
يداعب لحيته :

- أليس هذا عظيماً ، أليس هذا عظيماً ؟ .

وعند ما يعترض لافروف البيطار ، المميز عن الآخرين بصوته الاجش كمنققة الاوز البري ، المناقشة ضد النارودنيك يخفض أندريه حاجبيه ويهمس خاشياً :

- ياله من مزعج .

كان اتجاه أندريه نحو النارودنيك مطابقاً لتفكيره ، والامر الذي حز في نفسي هو هذه المعاملة الصعبة التي يعامله بها الطلاب ؛ كزجر الاريستقراطيين لخادمهم . ولكنه لم يلاحظ ذلك أو لم يهتم له . وعندما يغادر الرواد الغرفة كان يدعوني للبقاء معه هذه الليلة ، حيث يضع « لبتاداً » على الارض لنضطجع عليه كلانا ، ويهمس بأذني وسط ظلام الغرفة الشاحب بالضوء الباهت المنبعث من قنديل الايقونة ، ويسر اليّ بكلمات هو مؤمن بها كل الايمان :

- سينقلب مع الزمان لطرفنا مئات الشباب الطيبين بل الألوف . وسيملؤون كل المراكز الرئيسية في جميع انحاء روسيا . وبعد ذلك سيحولون حياتنا بسرعة قصوى .

كان يكبرني بعشر سنوات ، ومعجباً تماماً بناسيتا ذات الشعر الأحمر ، ويحاول دائماً ان يباعد بصرها عن بصره لشوقه الزائد وخجله العارم ، وأمام مرأى الآخرين يظهر بمظهر المستخدِم الامر . وبعد مغادرتهم المكان يعتذر لها مبدئياً أسفه ويحدثها وابتهامة الخجل على محياه ، وأنامله الراجفة تتلاعب بين شعيرات ذقنه .

وتراقبه اخته الصغرى بعينين واسعتين منفرجتين ، تمنّان

عن وجهها البريء براءة الاطفال السذج وهي تحديق بهيئة مضحكة مصغية الاصغاء كله ، وتسمع منهما أعذب الكلام وهي محتفية في ركن ما من الغرفة ، ولما يعلو الكلام بينهما تهرب بسرعة ، وهي تتنفس بصوت مسموع راجف ، كأن احداً قد داعبها بما مثلج .

ومن بين الزوار طالب طب يحاكي شعره لون الرمال . مغرم بعبور الغرفة بين جيئة وذهوب ، يحاول التقرب من الاخت الصغيرة . وحين يكامها يخفض صوته بصوت هامس ، مقطباً حاجبيه - كعادته - . كل هذه المداعبات ، كنت ارى فيها مثار متعة لي ولهم .

جاء الحريف واستحالت الحياة شاقة من دون وظيفة ، وخاصة لهذا الانجراف نحو صحي الجد فقلّ مرتبي ، وانخفض مكسبي حتى اني كنت ألتجأ لتحصيل خبري اليومي الى الآخرين . وحدثت عن صعوبة ابتلاع زاد الناس . فأخذت ابحث عن عمل في هذا الشتاء الى أن حطت رحالي اخيراً في مخبز « فاسيلي سيمينوف » . (وقد تحدثت عن هذه الفترة من حياتي في « السيد ، كونوفالوف ، ستة وعشرون رجلاً وامراًة ، ويا لها من فترة يائسة . وكم زادتني من المعارف) .

عندما هبطت المخبز ببنيتي الضعيفة ومعنويتي الناقصة ، نما بيني وبين زملائي في الصنعة صداقة قوية جعلت من ثباتها حائطاً من النسيان . نسيان الماضي ونسيان اصحاب اندريه . لم يأت احد منهم لمشاهدتي في المخبز ، كما اني لم أستطع زيارتهم لعملي ايام الاسبوع ما يزيد عن وقتي مع رفاقي في المخبز .

منهم من نظر الى كآني تسليته الوحيدة ، وآخرون يكونون لي ما يكنه الأطفال لمن يقص عليهم القصص الطريفة الشيقة . لا أعرف بأية وجهة من الحديث سأبادرهم ، حتى أفهمهم عن الامل في حياة غير هذه ، وانها ممكنة الحصول ؛ حياة اقل قساوة ، فيها مأرب وغاية . فأنجح احياناً في نشر اهدافي ومبتغاي ، وأشهد بريق الحزن على أنفسهم والغضب من هذه الحياة ، وافرح معتزلاً بتفكيري على أني قادر على العمل بين الشعب لانارة خطواته .

وكثيراً ما يصدف أن أجد نفسي - وهذا طبيعي - عاجزاً عن فهم أقل المسائل تبصراً ، وأعجز عن أسهل الأمور صامتاً ، فاشعر بالهوة التي رميت فيها ، كديدان عمياء تعمل دون ان تفقه . ويجدون السيطرة الوحيدة على النسيان بالشراب ، فيكرعون من دنّ الخمر ما استطاعوا مضياً ، أو بمشاركة المومسات لياليهن الصاخبة . لكل واحد منهم زبارة واحدة إليهن في الشهر ؛ في اول يوم يستلمون فيه الراتب . ويحملون قبل اليوم المنشود أسبوعاً كاملاً به ، ويطيرون الأحلام لما سوف يصادفون .

ويشرع في اليوم الثاني كل اثنين منهم ، بشرح اللذات التي صادفها في يومها الماضي كما كانوا يفاخرون بقواهم الجنسية الشابة ، ويهزأون من ضعف قوى المومسات .. ومع ذلك فإنهم يبصقون باحتقار كلما ذكرت إحداهن .

ومن الخجل حقاً الى حد الغرابة ، ان يشتري رجل امرأة من إحدى المراهير المنشورة في الشوارع ، لليلة واحدة لقاء روبل واحد . كنت أرقبهم باحتقار دون ان أشاركهم هذا الأمر

المشين ، حتى إني لم أداعب فتاة - او لم أجرب بعد - حتى الآن ،
فيغضبون مني بنجث مازح . ولم يعودوا ليطلبوا مني ان اذهب
معهم الى دور العهر اذ قالوا :

- من الأوفق لك ألا تشاركنا هذه الروححات .

- لماذا ؟

- لأن .. هذا يكفي ، يجب ان لا تكون معنا .

فتمسكت بهذه الكلمات شاعراً أنهم يجبئون في أنفسهم شعوراً
خاصاً نحوي .. ولكني لم أستطع فهم فحوى كلامهم . ثم قال
احدهم :

- يا لك من شخص لا يفهم ..! أقول لك ، انه من الحقايرة
ان تشاركنا الذهاب الى هناك .

ويتكلم ايضاً واحداً من الجمع اسمه آرتم وابتسامته المرّة
تعلو شقيقته :

- لكأنك قسيس تحمينا .. او اعتقد ان « أبانا » بقضه
وقضيضه هو الذي يرافقنا .

شعرت المومسات بفكاهة تمثعي ، وارجعن ذلك الى خجلي ،
ولكنهن ايقنّ باني احتقرهن تمام الاحتقار . فسألتني احدهن
غاضبة :

- وهل تظن انك اشرف منا ؟

لكن « تيروز بورونا » ، تلك التي تملك هذه المواخير ، ترقبني
بعينها الماهرتين لكانها عينا كلب ، وتقول لمن :

- لا تجرحنه يا فتيات فلربما عنده خطيبة .. أليس كذلك

يا شاب .. ؟ إن شاباً بهذا الظرف ، وهذه القوة لمن السهل عليه .
ان يحظى بحبيبة .

عندما تشمل تيريزا تصبح قبيحة الشكل ، اما حين تصحو من
سكرها فان نظراتها الثاقبة تذهلني ببحشها عن منطق الحياة .
وبعد ان تسكت قليلاً تعود الى كلامها :

— إن اصعب الاشخاص الذين يستحيل على المرء فهمهم هم
طلاب الاكاديمية ، فما عساهم يفعلون بفتاة ان حصلوا عليها ؟
أيزلقونها على بلاط الحمام المدهون برغوة الصابون الى بعيد ، وهي
عارية ليروا مدى انزلاقها بعريها ؟ ام ماذا ؟ ..
— انك لثرثرة ..

فتجيب هادئة ، وكأنما الالهانة لم تصبغ وجهها الملون :

— كلا ، لست كاذبة .

— لقد اختلقت كل قولك .

فأردفت محمقة بعينيهما الواسعتين :

— أوتظني مخبولة ؟ .. وكيف تستطيع امرأة مثلي ان
تختلق شيئاً كهذا ؟

كانت تيريزا تواصل كلامها والناس متكئون حولها يستمعون
مصدقين ، بكثير من الاهتمام . ورواد الماخور في انجذاب نحوها
لكأنهم يبحثون عن شيء .. وقد وجدوه عندها .. ويزأ
المستمعون من الطلاب ، بل ويبصقون ويلعنون .

حاولت تيريزا بذر العداوة بيني وبين صبي الذين أحبهم من
كل جوارحي ، فأجيبهم مبطلاً قولها بأن الطلاب يحبون الشعب ،

وهم انما يدرسون لاسعاده واعلاء شأنه . فتمتول ساخرة :

— ان هؤلاء الذين تمنعهم هم من طلاب « فوسكري سنسكيا »
اما الذين اعنيهم فهم طلاب الكنائس من « أرسكوليه
بوليه » اولئك الايتام . فعندما يغدو اليتيم يافعاً سينقلب
بكل تأكيد الى لص خبيث لا أحد يردعه عن فعلته .
خلقت هذه الأحاديث في رفاقي شعوراً أعبر عنه بكلمة تيريزا
« وهكذا ، فان الشعب أسوأ منا » وإنه من المؤلم حقاً أن أسمع
أقوالاً صادقة من مكان كهذا ، ودعايات كاذبة حول الشباب
المتخلف أيضاً .

واصبح من الواضح لكل انسان ان رفاقي انما يتعلمون من
الجامعة ، وان الشعب يتلقى دروساً وضيعة من بيوت الفحش هذه .
و كنت اراقب بنات الهوى وهن مضطجعات او راقصات على
موسيقى هائجة ، فلم تتأثر نفسي حتى انني كنت اشعر بنحوهن بما
يشبه شعور المتدينين من العرب المسلمين .
واستحال علي تثبيت طلب الحرية في قلوب عمال الخبز . إذ
كنت أسمع بعض قولهم :

— لقد قصت علينا بنت الهوى اقاويص عجيبة ، فكان حديثها
اجمل من حديثك .

ويزأون بي دون رحمة ، فأتحمل بصبر وجلد ، ولكنني كنت
أسأم من تهاونهم في طلب الحياة الصريحة ، وكذلك كنت اشعر
بشيء من الكراهية لرضاهم وخضوعهم لصاحب الخبز الثمل .
وأصل بتفكيري الى اضغاث أحلام أتمناها ولكنها واهية .

الى جيلدا

تعثرت في احدى الليالي ، العاصفة ، الزاخرة بالأقطار ، رجل
كان ممدداً تحت الثلج عندما كنت عائداً من زيارتي لآل
دورينكوف ، فتقاذفنا السباب والشتائم ، انا باللغة الروسية وهو
بالفرنسية :

— يا للشيطان .. !

وانهضت الرجل مستغرباً منه نومه في هذا الجو البغيض ،
وحين انتصب اخذ يصرخ :

— عليك اللعنة .. اعطني قبعتي ، سأموت من البرد .

ووجدت قبعته بين الثلج ، فنظفتها ، ووضعتها على رأسه .
ولكنه انتزعها بعنف واخذ يلوح بها صارخاً بوجهي ، شامساً إياي ،
وطالباً مني ان ابتعد عنه . وفجأة عاد الى سقوطه فوق الثلج
منبطحاً كأنه على فراش ، وهو ينادي :

— ليننا ، ليننا .. أين انت يا ليننا ، اني على وشك الموت .

كان الرجل في حالة سكر شديد ، وإن تركته فالموت حليفه
لا محالة . ولما سألته عن مقره اجابني :

— لا ادري اي طريق اسلك .

فأحطت خصره بذراعي وحملته الى مكان امين ، وسألته ثانية
عن مقره فأجاب بتلكؤ :

— عند البولاق .. نعم قرب الحمام العام .

كنت اسمع اصطكاك اسنانه وهو يقول بالفرنسية متمايلاً عن

شمال ويمين :

- آه لو تعلم .. !

- ماذا تقصد ؟

ثم توقف فجأة وهز يده ببطء متكلماً بشيء من التكبر :

- آه لو كنت تدري ، الى اين آخذك الآن .. !

وسقط ثانية ، وعدت الى حمله ، واخذته الى البولاق ، وهو

يردد طوال الطريق :

- لو كنت تدري ، لو كنت تدري ! .. ولكنني اكاد

اموت برداً .. رباہ .

وعندما وصلنا الى البولاق طلبت منه ان يخبرني أين يسكن ،

ولكنه اندفع نحو باب بيته ، وقرعه برفق وخفة هامساً بي :

- اصمت ..

فتحت الباب امرأة بثوب احمر ، بمسكة شمعاً تحترق يمينها ،

ساندة الباب بشمالها وانزوت جانباً كي تدعنا نمر . وأخذت نظارتها

من جيبها الصغير ووضعتها على عينها اليسرى ، لتدقق في شكلي .

فأخبرتها ان الرجل في حالة مؤثرة ، ومن الواجب ان تخلع عنه

ثيابه ويوضع في سريره . فأجابت مستفهمة ساخرة :

- نعم ؟ .. !

كان صوتاً عالياً وذا نغمة رنانة ، ثم قلت :

- يجب ان 'تغمس يده في ماء بارد حتى يستريح .

فأشارت بنظارتها الى احدى زوايا الغرفة ، لم يكن في ذلك

المكان سوى لوحة مصور عليها نهر يتدفق واشجار مائلة .

فاستغربت ذلك ونظرت الى وجه المرأة الجامد بغرابة ، ثم ما فتئت ان سارت تجاه الطاولة ، وجلست تفرز اوراق اللعب تحت ضوء مشكاة مغطاة بستار وردي اللون ، وتفحصها بدقة كدقة اللاعب . وكلمتها بحدة :

— هل لديك قليل من الفودكا ؟

ولكنها لم تجب اذ كانت منهمكة في مـد ورق اللعب . والرجل جالس على الكرسي ، ورأسه على صدره ، ويداه الجراوان مسبلتان عن جنبيه ، فأرحته على أريكة طويلة وشرعت في خلع ثيابه . لم استطع فهم ما كان يحدث في هذا البيت ، وشعرت كأني سابح في اضاغاث احلامي . فتشاغلت بالصور الشمسية المعلقة على الجدار . وقد لفت نظري شريط ذهبي مكتوب عليه :

« إلى جيلدا ... الى التي لا مثيل لها »

وعندما بدأت افرك له يديه صرخ في وجهي :

— انتبه .. عليك اللعنة .

اما المرأة فكانت تنشر اوراق اللعب بتؤدة دونما حراك ، وانفها الحاد كان يعطيها مسحة الطائر ، يضيئه زوج من العيون الجامدة . ولكن حين سمعت صوت السكير يرتفع ، قالت :

— هل شاهدت ميشو يا جورج ؟

فتربع جورج بحركة سريعة على الأريكة ودفعني من طريقه وهو يجيب :

— ماذا ؟ .. ولكنك تعرفين انه ذهب الى كيف .

- وسيعود قريباً ؟

- نعم ؟ .. بلى بلى سيعود قريباً ، قريباً جداً .

فرددت المرأة هذا القول :

- ماذا ؟ ماذا ؟

فانتفض جورج من مكانه ، وركع عند قدميها متكئاً على ركبتيها وقال شيئاً باللغة الفرنسية وأجابته بالروسية . ثم أعاد جورج قوله وهو ممسك بيديها :

- انت تعرفين .. لقد انتهت في الطريق ، اذ كان الجو معكراً صعباً ؛ الثلج يندف ، والعواصف تزجر ، وكدت أموت من شدة البرد .

كان جورج في الاربعين ، وعلى وجهه علامة الاضطراب والخوف حتى كاد ثلثه يمحي ويضحمل .. وقالت المرأة :

- سنسافر غداً الى كييف .

- غداً ، كما تترتأين . ولكن يجب الآن ان تستريحى . هلا ذهبت الى فراشك ، ان الساعة متأخرة ، والليل قارب ان ينتهى .

- وميشو ، أ يصل غداً ؟

- كلا من الصعب عليه المجيء وحده . لأن هناك عاصفة هوجاء . اذهبي الى فراشك .

واخذ المصباح من على الطاولة ، منيراً لها الطريق ، وهو يعبر الردهة أمامها ، من باب صغير محاط بمكتبة صغيرة الى غرفة نومها . أما انا فبقيت وقتاً طويلاً في نفس الغرفة اذرع أرضها أحياناً ، وأتسلى بأشياء أخرى ، أو انصت الى الصوت المنبعث من الغرفة المجاورة التي دخل اليها الزوجان . ثم

عاد جورج والمصباح في يمينه قائلاً :

- الحمد لله .. لقد ذهبت الى فراشها .

وأعاد المصباح الى مكانه على الطاولة مخنياً هامته كأنه غارق في خضم من الأوجاس ثم واصل كلامه دون ان يلتفت الى أو ينظر نحو ي :

- كنت على وشك الموت فأنقذتني أنت وأني لأشكر لك صنيعك الجزيل هذا .. ها ، ومن انت ؟ لم تخبرني عن اسمك وحقيقة حالك ؟

- أهذه زوجتك ؟

- نعم زوجتي .. هي كل ما أملك من هذه الدنيا . ام يجب أن أشاركك في قدح من الشاي ؟ إن الجو بارد .

وبعد أن خطا خطوة نحو الباب ، توقف كأنه تذكر شيئاً ، نعم لقد أخذ خادمه الى المستشفى ، فعرضت عليه ان يوقد الموقد فوافق باسماً - ناسياً أنه ما يزال بنصف ثيابه خالِعاً الاقصية العليا - وانطلق معي ليريني المطبخ ، وهو حاف . وهناك وهو متكئ على الموقد قال :

- كدت أموت برداً لو لم يسعفني الله بك ، فاني أشكرك

من جديد ؟

ثم حملق بوجهي بعينين قد غزاها الرعب الشديد وقال :

- رباه ! ما عسى ان يحدث لها لو لم تنقذني من استغراق

تحت الثلج ؟

والتفت نحو الباب بطرف عينه ، وهمس لي سراً :

- ألم تلاحظ أن بها مساً من الجنون ؟ .. لقد أنجبت ولداً ،
كان اعجوبة الموسيقى ، ولكنه منذ عامين انتحى بعيد تعب من
ثباته لبلوغه القمة . ولا تزال زوجتي تفكر انه سيعود .
وفيا نحن نحتسي الشاي أخذ الزوج يتكلم جملاً غير مترابطة ،
وبصوت خافت يكاد لا يسمع ، واخبرني كيف التقى بها ،
وتزوجها منذ اعوام :

- كان ذلك في احدى قرى الريف حينما كنت مدرس
التاريخ في مدرسة ابنها ، وأعطيه دروساً خاصة في بيته كل
مساء . وكانت هي احدى السيدات الراقيات في القرية ، وقد
وقعت بها لوعة الحب ، فهجرت زوجها النبيل الاقطاعي الالماني
الاصل . وحين احتجنا الى المال غتت في الاوبرا ، وكم كنا
سعيدين في تلك الايام ، مع ان النبيل حاول ان يعكر عليها
صفو عيشها .

كان يتكلم بتؤدة خافتة ، وعيناه جامدتان نحو الباب بسهر
غامض ، ثم تطلع اليّ في قلق ظاهر وسألني :

- ولكنك لم تخبرني عن احوالك ، من أنت ؟ .. ها أظنك
عاملاً في مخبز في مكان وضيع ، غريب هذا حقاً ! .. انك لا
تتناسب وهذا العمل ابداً ، ولكن لم ذلك ؟

كان في صوته نبرات من الوجل يشوبها عدم الثقة في نظرته
التي طرحها علي ؛ نظرة انسان أحس انه وقع في كلامه بهوة
سحيقة . ثم قصصت عليه نبأ حياتي التي عشتها حتى الآن ، وبعدها
سألني كأنه يحاول تغيير الحديث بعض الشيء :

— هل تعلم قصة البطة القبيحة ؟ انها قصة خرافية حقاً .

فلوى وجهه نحوي قليلاً بشكل بشع وأردف :

— ان قصة كهذه تغريك تماماً ، وقد أغرتني حين كنت

صغيراً ، اذ احببت أن أصبح شيئاً مرموقاً في حياتي ، كما رغبت
تلك البطة ان تصير طيراً أليفاً .

— كان من المتوقع ان ادرس في الاكاديمية ، ولكنني فجأة ،

تحولت في دراستي الى الجامعة ، كان ابي قسيساً لذا فانه منعني من

إرثه . فدرست التاريخ في باريس ، وحين وصلت في دراستي الى

العصر الحديث أحسست بالبوئس يعتورني لما ألمّ الشقاء بتلك الشعوب

المتضاربة ، وقد كتبت عن واقع الحياة الحاضرة كتابات طويلة .

ثم توقف قليلاً كأنه يستعيد ما قد سلف وسها عنه ، او

يستجمع من مخيلته ما طاب له ان يجمع ، وادرف :

التقدم ، التقدم ، لقد ظهر هذا النوع من الحياة للسخرية

من الشعب ، اذ ليس لها اي معنى ولا اي منطق ، اذا لم تتآزر

جموع الشعب كله ، فانها لا ترقى إلا بالتعاون . وحين تنعدم سلطة

الاقلية الحاكمة ينعدم التقدم ، وكل ما نريد من حياتنا ان تسهل

مشقة العمل ، ولكن في اعمالنا الحديثة هذه ، تجعلنا اشقياء اكثر .

هذه المعامل والآلات المتزايدة الصنع ، ترغب المزيد من

العمال ، بينما نحن في امس الحاجة الى الفلاح حتى يبذر ويحصد .

الامر الوحيد الذي لانستطيع استخلاصه بالهين هو الطعام ، فعلينا

ان نعمل من اجله . . . » كلما قلت مطالب الانسان ازداد سعادة

وكلما زادت شهواته نقصت حريته وتعب . »

قد أكون غيّرت حرفية كلماته ، ولكن الأصل والأفكار
نفسها عبرت عنها بجودة لاني حفظتها عن غيب . وكانت هذه المرة
هي الاولى التي تعرض لي افكار جريئة كهذه وبشكلها السافر هذا .
وبعد أن أنهى كلماته السالفة صمت قليلاً ، وأراح نظره الى
الباب من جديد ثم واصل بهمس مسموع ، لكنّها صرخة داوية :
- احفظ عني هذا القول « لا تتعدى حاجات المرء الرغيف
والمرأة ، ففي الاول يشبع نهم بطنه ، وفي الثاني يطفىء غريزة
جنسه ، وهذان الامران فقط هما سبيل لذته » .

كان يتحدث عن المرأة بصوت خافت لم أسمع بصراحته بعد ، كما
لم يسبق لي قراءتها . وفجأة تحولت لهجته وشابهت لهجة اللص
بوشكين ، وتحدث عن اشخاص ، وذكر اسماء لم اسمع بها قط ..
بياتريس ، فياميتا ، لورا ، نينو .. وتحدث عن ملوك وشعراء
عشقوا ، وبعد أن القى عليّ قصيدة بالفرنسية قال :
- الحب والجوع لا يجتمعان .

فهمت منه هذه الكلمات تمام الفهم ، وعبرت عنها بكتاب اسميته
(الملك جوع) . كل الناس تبحث عن تناسي الماضي ، وتتحرى
بيوت العهر ، ولكنهم لا يطيقون ان يبحثوا عن المعارف والفضيلة .
لقد اذهلني فكرته الاخيرة حقاً ، وجعلتني أعود بذاكرتي
لأحفظ اقواله من جديد .

آلام الثورة

كانت الساعة السادسة وبضع دقائق صباحاً عندما غادرت دار استاذ التاريخ عابراً الرياح العنيفة اللافحة، والثلوج الكثيفة المتساقطة بقوة . وفي هذا الجو الشعري عادت الى ذاكرتي كلمات معلم التاريخ ، وتوقفت في حنجرتي وكادت تخنقني لأعود الى ذلك المكان الوضيع ؛ الى الخبز ، واعيش بين الشعب حياة صعبة المسلك ..

فحولت وجهتي قاصداً الحيّ التتاري ، واخذت التجول في حواريه حتى وضع النهار ، واحى الظلام ، وبانت اقدام السابلة فوق الثلوج . لم اقابل معلم التاريخ بعد تلك الزيارة كما اني لم ارغب في مقابلته ولكني سمعت مرات كلماته عن تفاهة الحياة وسخافة العمل ، سمعتها من شفاء جاهلة معنى الحياة ومن اناس لا مأوى لهم ولا مشرب ، خاوي الوفاض حتى من الطعام الذي يسد لهم الرمق . ومن رجال ونساء مثقفين بمبادئ الكاتب العالمي تولستوي ، وكذلك سمعت كأقوال معلم التاريخ ، من رجل دين يدرس اللاهوت وكذلك من كيميائي يعمل بالمتفجرات ومن عالم في التشريح ومن آخرين غيرهم ، وقد سرت بين الاوساط بشكل لم اعهد . وبعد ان مضى على حادثة معلم التاريخ ثلاثون عاماً عدت فسمعتها من صديق حميم يعد نفسه سياسياً ماهراً ، حين نتجاذب اشتاتاً من الاحاديث . وابتسم ابتسامة سيد الوحوش وقال بصرحة تامة :

- يا صديقي اليكس مكسيمتش . ما جدوى العمل المضني ؟
علوم . أكاديميات . طائرات . انها لأعباء ثقيلة الوطء عليّ ولست
بحاجة لانك قواي بها ، ثجل ما أريده من هذه الحياة ، هو منزل
بسيط وامرأة عاقلة اضمها الى صدري ومتى يحلوي وتشاركني
الحياة بروحها وجسمها . اما انت فلم تعد من طبقتنا انك سموت
واصبحت في مصاف العلماء ، وتفكيرك يشابه تفكير رجال الدين ،
وتقول بان الانسان خلق للعبادة فقط . اليس كذلك ؟ .

- اعتقد ان اليهود وحدهم يدينون بهذا الاعتقاد .
- كلا لا يعلم عن اليهود احد غير الشيطان ، انهم شعب بهيم
غامض .

وقذف بسيجارته الى النهر ، واخذ يرقبها وهي تسير في
الماء .. كنا جالسين على مقعدٍ حجري على رصيف « النيفا » في
ليلة من ليالي الخريف الصفراء يضيئها القمر الهاديء ، وكلانا
منهوك القوى ، نتجرّى منافع الحياة ومصالحها ثم اضاف قائلاً :
- انك معنا ولكنك لست منا ، وإني لشاهد على هذا ، يجب
العلماء القلق والاضطراب ويرتبطون دوماً بالثورات ، كالمسيح
ذي المبادئ الثائرة يهدد بعالم آخر . وكذلك كل العلماء سائرون
على نفس الوتيرة .

يثور الرجل ذو المبادئ ، فيلحق به العاطلون والرعاع لانهم
لا يجدون ما يعيشون به اما العمال فانهم انما يثورون من اجل
الثورة مطالبين بالتقسيم العادل في منتوجات العمل . ولكن حين
يبلغون المناصب والرتب ، هل يرضون بما كانوا يطالبون به ؟

- كلا سينفصلون ويتطرفون ، وسيحاول كل واحد منهم ان يجد لنفسه زاوية هادئة في مكان ما ليعيش فيها ..
- انك تقول عن فن الآلات وانتاجها . ولكنهما لن تأتي بثمره ، الا انهما ستحمل اكتافنا بالنير ، وتضرب على معاصمنا بالاغلال .

لماذا اعيش وسط هذه الآلات وبين صخب المدينة ، وانا لا أريد الا كوخاً بسيطاً في مكان هاديء ... قل ما تشاء عني فلو تخلصنا من هذه الأشياء : الآلات والكهرباء وانايب المياه .. لكنت الحياة سهلة المرتقى ، نعم .. وكل هذه الامور تأتينا من العلماء . لذا فانا مجبر على القول بأن العلماء فئة فاسدة .

- لا يوجد يا صاحبي شعب على وجه البسيطة يحسن من تغيير اندفاع المياه او اندلاع الثورة كما فعلنا نحن الروس .
- ان الملايين منا يفكرون بان الشعب الروسي هو ارقى من يفكر في هذا العالم ، ولكنهم لا يحسنون كيفية التعبير عنه . لا تغضب . انما اقول الصدق ، ومن الممكن ان نجعل الحياة اكثر سهولة وأحسن .

وبعد ان غادرني صاحبي ، عدت الى تفكيري عن هذا الشعب الذي يريد الحد الأدنى من العمل ونصيباً اوفر من المتعة حتى انهم يريدون التخلص من العمل . فكيف انهم رجالاً ونساءً يصبرون على هذه الحياة ، ويقاسون آلام الثورة ؟ .. ألا أنهم يريدون متعة الدنيا ؟ !

وتذكرت في تلك الآونة بعض اشعار هانريك ابسن :

« لست محافظاً كما تنعتونني .
ولن أكونه مدى الحياة »
« لست قلبياً بمبادئ دنيائي
انما اصلحوا أخطاءكم فنعمل سواسية »
« لم تكن الثورة التي اذكرها
ثورة غش في الحياة ، أو خداع »
« ثورة العمل فيها بالطبع كان الطوفان »
« وقد خدع قبلنا ابليس وطاف نوح على المركب
لنجدد عز منا ايها الاصدقاء الراديكاليون »
« وسنحتاج الى مقاتلين وخطباء وكتاب عظام »
« استعدوا لثورة طوفان جديد »
« وانا بكل سرور اول من يطلق على السفينة الرصاص »

- ١٥ -

النجدة ... النجدة ...

إن دخل دور ينكوف الذي يجنيه من حانوته الصغير قليل
وعدد المنتسبين بنمو مستمر ، لذا كان يقول لي :
- علينا أن نفكر بشيء جديد .

ثم يتنهد ويعود بعدها ليبتسم . يبدو من سيائه كأنه قد حكم
على نفسه بالعمل الشاق والجهد الطويل لخدمة الانسانية واعانة
المجتمع . وسأله اكثر من مرة :

- لماذا تعمل كل هذا ؟ .. ولمن ؟

ولكنه لم يفهم ما أعنيه ، إذ كان يجيب بكلمات تحتاج الى بعض التفسير ، وأسأله :

- هل يحتاج الشعب لظهور المعرفة ؟ وهل الشعب بحاجة اليها؟

- طبعاً ! ولم لا ؟ ألسنت تريدها ايضاً ؟

- نعم هذا ما اتمناه ولكنني أتذكر معلم التاريخ واقواله ..

دوماً يبحث الرجال عن نسيان السالف ، ويفتشون عن مقر بيوت اللهو انهم لا يبحثون عن الحقيقة ولا عن المعرفة ، وانه لمن المشين ان تطرأ مثل هذه الافكار على عقولكم وانتم ما زاتم في الحول السابع عشر .. كان قوله هذا مثال الحارس لي . اذ أتذكره في كل آن حتى ولو قرأت القصص لانها تنسيني ما كنت فيه ، اما القصص التي تحوي الجرائم الواقعية والحوادث الغريبة فانها تحمسيني على قراءتها وكذلك الناس اجمعين .

وبما ان دخل دورينكوف من حانوته قليل فانه قرر ان يفتح مخبئاً ، ولما كنت عضواً في جماعته فقد طلب مني ان اعمل معه واراقب الحياز ، لئلا يسرق من الطحين والبيض والسمن ، والكي يتقن عمله .

وهكذا انتقلت من مخبز ضخم وقدر ، الى آخر صغير نظيف وقد انيطت مسألة تنظيفه وتنظيمه بي .

كان شعر الحياز حول صدغه رمادياً ، وله لحية طويلة ووجه صغير فيه عينان سوداوان لامعتان تمان عن ذكاء وبصيرة ، وفم عجيب الشكل ، شفتهاه غليظتان مقلوبتان فكأنما يقبل انساناً . يظهر

لك تماماً بأنه رجل هادىء ساخر .

وقد سرق في اول ليلة بدأ يعمل فيها عشر بيضات واكثر
من ثلاثة ارطال طحين وكمية من السمن فسأله :

— لمن هذا ؟

— لفتاة صغيرة فقيرة أعرفها وستعرفها .

ثم تطلع الي بعجب وقال :

— انها جميلة جداً

حاولت ان افهمه بان العالم يعتبر السرقة — مهما كان شكلها —

جريمة ، فلم يقتنع بضعف بلاغتي ، وربما لم اقتنع بها انا نفسي .

وعلى كل لم يكن لاشاراتي اي تأثير في عقليته .

كان مضطجعا على صندوق كبير ناظراً الى النجوم من النافذة

وأخذ يقول :

— عجب هذا ! أيلقي عليّ محاضرة ؟ ! ولأول مرة شاهدني

فيها . عجباً هيهِ ! وعمرى اضعاف عمره ! ...

وعندما أنهى جولته في متابعة النجوم سألني :

— اين اشتغلت قبل الآن ؟ . يبدو لي أني قد شاهدتك في

مكان ما . أعند سيمنوف ؟ .. كلا حسناً . لا بد أن اكون قد

شاهدتك في اضعاف احلامي .

اكتشفت بعد ايام انه مغرم بالنوم وبإمكانه فعل ذلك في اي

وقت وموضع ، حتى ولو كان واقفاً ، او ممسكاً بألواح الخشب .

وحين ينام ترى ملامحه قد تغيرت . فيرتفع حاجباه ويتغير شكل

وجهه وتدون احاديثه حول قصص الكنوز المدفونة والأحلام

الغريبة وتراه دوماً يعلن بكل ايمان :

« ان الارض زاخرة بكنوزها لكنها اللوزينج ... او ان صناديق واطباق من الذهب الثمين نجدها في كل مكان . وقد حلت مرات بأن في الارض داخل الحمام صندوقاً مصفحاً بالفضة محلياً بالجواهر راكباً احدى زوايا الحمام . وقد استيقظت مرة بعد ان رأيت ذلك الصندوق وذهبت من توي الى الحمام لأحضره . وظلت على عملي الى ان بلغت قامة رجل تقريباً ، فماذا تظنونني قد وجدت ؟ .. بعض عظام كلب وجمجمته . وفيما انا كذلك اذ بي اسمع ضجيجاً من الحارة وعويل امرأة مجنونة تصرخ :

— اللصوص ، اللصوص .. النجدة ، النجدة .

ولا شك فاني اسرعت متخفياً ساخراً من فعلتي .
وكثيراً ما كنت اسمع منه هذه الجملة .. « ياله من شيء يضحك ! » ولم أر « ايفان كوزميتش لوتونين » يوماً يضحك قط !
إذ كان حاجباه يتجمعدان بسخرية ، وتوسع خياشيمه باستنكار وتكتظ عيناه باستكراه .

كنت اعجب من تمتعه وسروره بأحلامه مع انها ليست من الاحلام الخيالية ابدأ وكانت حياته مثل احلامه بسيطة لا يسأل عنها ولا عن غيرها .

الحب نوعان

استيقظت المدينة بأسرها على اثر انطلاق النار بعد منتصف ليلة ربيعية . تزوجت ابنة احد أثرياء الشاي من غير ارادتها وقد اجبروها على قبول هذا الزواج ، وعندما علمت ان لا بد من قبوله اطلقت النار على نفسها بعد حفلة الزفاف فهرع الناس زرافات ووحداً لتشييع جثمانها . وقد اشترك في الموكب آلاف مؤلفة من نساء ورجال وشباب وطلاب ، واخذ بعض الطلاب يلقون الحطب الى جانب رمسها ، ولكن الشرطة فرقت الجموع اخيراً . كل طالب في الغرفة وكل من وقف بباب الحانوت يتحدث عن هذه الأساءة الصارخة ، التي أجبرت فتاة في ربيع عمرها الأول ان تغادر حياتها مكرهة ... وفي الخبز قال ليتونين :

- كان من الأوجب على ذويها ان يهذبوها ويربوها خير تربية حين كانت صغيرة .

ثم يغير حديثه موجهاً قوله لي :

« لقد حامت ليلة البارحة بأني كنت اصطاد سمكاً من بحيرة صغيرة جميلة ، ولم يطال وقوفي هناك حتى سمعت الشرطي يقول من خلفي : قف ..

- بأي حق ؟ ...

فحاولت الهرب ولكنني لم اجد سبيلاً غير عبور البحيرة ، لذا قفزت الى الماء ، وبعد ان وصلت الى قعر البحيرة استيقظت ! »

كانت الحياة تسير عادية تقريباً لا تستوجب الانتباه الزائد اليها ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان بالنسبة لمخبزنا . لقد طرأ بعض التبدل في التنظيم إذ بدأ يعمل في الخانوت لبيع الخبز بنات عوضاً عن « اندريه » . فتيات مثقات ، يطالعن الكتب وقفن يعملن بائعات .

الاولى اخت اندريه والاخرى صديقتها - ضويلة وذات وجنات وردية ولها عينان رؤوفتان . وظل الطلاب يأتون الى الغرفة ويمكثون فيها ويتحدثون بصخب ، مع ان اندريه - صاحب الخانوت - يختفي جل أيامه ، فأصبحت العامل الاول في المخبز ومديره . فكان ليتونين يسألني :

- هل انت قريب صاحب المخبز ؟ أم هل يفكر بأن يجعل منك صهراً ؟

فأهزله برأسي نقياً فيعود الى كلامه :

- لا ؟ ! ياله من امر غريب ! ولم يحوم الطلاب هنا داخل الخانوت ؟ أمن أجل البائعتين ؟ نعم يجب ان يكون هذا . يالهم من أغبياء ، اني لا ارى اي جمال في جسميهما حتى تجلبا نظره هؤلاء الشباب . وكذلك هم . هيأتهن متأكلة والبستهم متسخة وليس على سياهم نقاوة الغرام حتى تقع البنات في حبائلهم ويهن بهم .

قبيل الساعة الخامسة صباحاً من كل يوم او تزيد ، تقترب فتاة من مخبزنا ، لتجلس بالقرب من النافذة ، يتكىء على صدرها نصفاً كرة مختلفا الحجم ويبدو صدرها كأنه كيس بطيخ ، وساقاها قصيران هزيلان ، كانت تجلس على الرصيف المجاور لتنادي

والتشاوب ما زال عالقاً على شفتيها :

— فانيا ! فانيا !

وهي خفيفة الظل ، شعرها مجعد متناثر على كتفيها ، مربوط الى الحلف بمنديل احمر زاهي الألوان محلىّ بهالات نجوم صغيرة منكبة على جبينها الضيق القدر وتجعداتنا تحف لتغطي عينيها الناعستين فتومغها بمجرّكة كسولة بأناملها المتفتحة الرفيعة الى الحلف كأنها مولود رضيع . وكنت أتساءل في نفسي عن هذه الفتاة : ماذا يرى فيها المرء من الوداعة حتى يكلمها أو يغرم بها ؟ .

وعندما يستيقظ الحبار ينظر ناحية النافذة ويسألها :

— أنت هنا ؟ ..

— نعم ها أنذا ..

— هل رقدت هنيئاً ؟

— ولم لا ؟

— وبماذا حلمت ؟ .

— لا اذكّر ..

حتى في تلك الساعة المبكرة تسمع حركات في المدينة وإن كانت راكدة هائلة . فهناك صوت المقشات تكنس الارض ومن خلال الاشجار أغاريد العصافير وسقسقتها . وهرعت الشمس من رقادها فرمت علينا أشعة لطيفة يعكسها الزجاج والماء فتغدو المدينة لامعة باهرة .. كانت هذه اللحظات أحب وقت الى فأجلس قرب الباب وأنعم بهذه المناظر الخلابة الساحرة .

اما خبازنا فانه لا ينتبه الى كل هذا . ولم ينتبه ؟ وعنده

اجمل .. يتقدم من النافذة ويمد ذراعاً مكسوة بالشعر الحشن الى ساقى الفتاة يربت عليها ويمرغ يده بين ركبتيها وهي ابدأ خاضعة وغير مبالية بما يصنع وينادي :

— بيشكوف ، لقد آن اخراج الحلوى ، اسرع اليها قبل ان تلتهمها النار .

فأخرج الصيجان الحديدية وأضعها بجانب بعضها فيسرع هو ليومي في حجرها كمية من الكعك الحار فتلتهمها برعة ، حارقة فاها ، وتقضمها بأسنانها الصفراء وتئن ، وعندما تذهب يفاخر بأنه يملك اجمل فتاة على بساط الكرة .

— إنها مثل الربيع وأجل من الربيع ، كأنها حمل صغير مغطى بوبرٍ ناعم مجعد . هل اعجبتك ، اني مغرم تماماً بها ، ولا أصاحب نساءً ابدأ ولي من البنات ثلاث عشرة وهي احداهن . كنت اصغى الى كلامه الطويل صامتاً متسائلاً :

— وانا أيجب ان احيا كحياته ؟ أمن الواجب ان يعيش كل انسان كما يعيش هذا الرجل ؟ .

وعندما ينتهي خبيز الأرغفة البيضاء الكبيرة اسرع في حملها على اطباق خشبية الى حانوت دورينكوف ليبيعها ، ولما انتهى من عملي هذا ، أملاً سلة بالكعك وأخملها الى الأكاديمية اللاهوتية وألحق بهم قبل أن يشرعوا بالفطور .

و كنت أقف بالباب وأقدم الكعك نقداً او على الحساب وأنشعب بكل ما كانوا يتناقشون به عن « ليو تولستوي » وخاصة حين يتكلم الاستاذ جوزيف عن تعاليم تولوستوي . وقد كنت

اضع في بعض الاحيان كتباً تحت الكعك لأعطيها خفية للطلاب
واحياناً اخرى يرمون في سلتى كتباً او رسائل لاوصلها الى
المكتبة .

وكان علي ان اوصل كعكاً الى مستشفى المجانين مرة في الاسبوع
فقط . وأبهر الى قاعة المحاضرات لأسمع الطبيب النفساني «نختيريف»
يلقي على الطلاب بعض الشروح عن عوارض الامراض العصبية .
وفي احد الأيام عرض علي الطلاب مريضاً بجنون «العظمة» وعندما
ظهر المجنون في الردهة تملكني بعض الشعور بالضحك .

كان طويل القامة مرتدياً جلباباً ابيض ، ورأسه مغطى بقبعة
نوم وحين رأيته اضحك توقف عن سيره ناظراً نحوي بشزر فتراجعت
الى الخلف قليلاً . وبينما كان الطبيب يداعب لحيه المريض ويقوم
بمحادثته باحترام واجلال كنت امسح يدي على وجهي لكانه
لسعني بكفه الغليظ حيناً مرّ امامي . ويسأله الطبيب اسئلة كثيرة
فيجيبه عليها بتعجرف وعظمة ، وبين كل لحظة يمد يده نحوي
كأنه يريد أن يستخلص خنجرتي من رقبتي .

اما الطلاب ، فمنهم من يضحك من هذه الهيئة المثيرة ومنهم
من هو مأخوذ بتقاطيع وجهه . كان يلقي الرعب في القلوب حين
يتكلم من غير ان يعارضه احد من الحاضرين . والجميع كأن علي
رؤوسهم الطير الا المجنون والأسناذ .

كان يحدث عندما يتكلم ملاحظات عابسة بصوته العميق
كأنه يأتي من تحت الارض او من وراء الجدران البيضاء ويتحرك
بشيء من العظمة كأنه رئيس اساقفة . وقد حاولت ان انظم بعض

الاشعار عنه تحت عنوان :

« ملك الملوك ، صديق الله ومستشاره »

لم يكن لدي وقت خاص للمطالعة ، اذ اني اُنهك بالعمل من السادسة صباحاً حتى الظهيرة تقريباً ، وأقضي النصف الثاني من اليوم بالنوم ، ولكنني كنت اقرأ بين فترات العمل اثناء الراحة او بين الخبز . ولما اتقنت العمل لأقف امام النار ، ترك الخبز لي مكانه مدعياً انه انما يريد تعليمي . وبصوت الصديق المعجب يقول لي :

— انك ماهر في عملك ، عن قريب تصبح خبازاً ممتازاً ولكنهم لن يحترموك لأنك ما زلت يافعاً ، ولم تبلغ السن المؤهل لتكون منفذ أوامر . لم يكن موافقاً على مطالعتي الزهمة ، ولا يرضى ان أخفي رأسي طيلة ساعات فراغي بالقراءة فيقول لي :

— الا تأخذ لك قسطاً من الراحة ؟ . الا تشعر بلل من القراءة الدائمة ؟ كف عن هذه المطالعة يا أخي إنها تؤذيك .

كان يطلب مني الكف عن القراءة باهتمام ، ولكنه لم يسألني مرة عما تحوي هذه الكتب من علوم لأنه منهمك باحلامه اللذيذة وتخيلاته عن كنوز الارض المدفونة طيها .

كثيراً ما نتردد حبيبته البشعة على الخبز ليلاً ، فإما ان يأخذها الى الخزن حيث اكياس الطحين المكدسة كأنها الفراش ، أو أخرج لنصف ساعة تقريباً الى الشارع ريثما يناديني وافكر — وانا تجول — عن فظاعة هذا الرجل وهذا الحب وشتان بين حبه الحشن الحيواني وبين الحب الذي اجده في الكتب .

وبالرغم من ذهابي الى حانوت اندريه لأشعل لأخته الموقد فاني دائماً أجعل زيارتي نادرة ، لاني اشعر ان وراء نظرتها إلي ، والتي تبين كأنها اول نظرة ، ابتسامة مخبوءة في ظل السخرية اللدودة .
اعتقد اني املك قوة في جسمي لا بأس بها اذ اني احمل اكياس الطحين دون تعب يذكروا لكن الحجاز يتطلع إلي باعجاب ويقول :
- مع ان قوتك تساوي ثلاثة اضعاف قوة اي عامل ، فانك بطيء الحركة كالثور يتحمل النصب ويعمل على مهل .

في تلك الايام كنت قد قرأت من الكتب قدراً لا بأس به من النثر والشعر وقد أحببت الثاني ، وأحببت ان انظم على وتيرته . وحين نخوض مضمار المناقشة بين بعض اصحابي استعمل ذات الجمل الضعيفة الاسلوب المفككة الاجزاء ، ولكني اعتقد تمام الاعتقاد اني مجيد بها لأنها تعبر عن ذاتي وتجوس في اعماقي .
ولكني حينما اشتد في المناقشة كنت اغلظ في الكلام ، وكثيراً ما وبخني استاذي الطالب في كلمة الرياضيات بقوله :

- حاول ان تجعل كلماتك نقية من كل عنف ، بسيطة بغير ضعف .

ويحدث لي كما يحدث لكل شاب في مثل سني إذ اني جدمستاء من هندامي وشكلي وكنيت اعتقد اني سخي ف الى اذن مرادل السخافة فظ الهيئة كأن عظام وجهي متصخرة وصوتي الحشن مذموم .
أما هي - أخت أندريه - فسريرة الحركة ، كأنها طائر السنونو يتأرجح في الفضاء ، وهي بقدها الناعم وهيكلها الصغير لها صوت عذب فتضحك بنبرات ساحرة متمدة اغرائي لنفسي

الحالة الاولى التي قابلتني بها . ولكن لم أرد ذلك و كنت أشعر بأن
الاشياء الحارقة للطبيعة ممكنة الوقوع وتساألني أحياناً :
- ماذا تقرأ ؟

- وماذا يهمك مما أقرأ ؟ ...

- ١٧ -

لقد خلعت قميصها

حين دخلت حبيبة الحجاز وسط الليل وبدأ يداعبها قال لي :
- اخرج برهة .. ها . ولماذا لا تذهب وتلعب مع ابنة
صاحب العمل ؟ . كيف تترك هذه الفرصة تضع منك ، لله دركم
انتم يا معشر الطلاب !

وعدت الى كلامي السابق واخبرته بانني اسحق له رأسه ان هو
تجراً وأعاد على مسمعي قولاً مثل هذا ، وسمعتة يجيبني :
- لماذا نغضب من قولي ؟ . القراءة المتواصلة هي التي جعلتك
تسير طيلة النهار كأنك احد المجازين ، واحتضانك الكتب بهذا
الشكل انساك ما تطلب نفسك الجائعة .

تركتهما لوحدهما والجرذان تتواكض في ارض المخبز ،
وخرجت الى الباحة . المطر يتساقط في كسل وبلا صوت ولكنه
ما غير من حرارة الطقس البارد المثقل برائحة حريق . اذ كانت
بعض الغابات تحترق عن بعد .

كانت نافذة البيت المقابل للمخبز مفتوحة وينبعث منها نبرات

موسيقية وخيوط من الاضواء الباهتة :

« منذ الازل القديس فارلامي بشكله ... المهيوب .. »

يبتسم لمريديه وهو مغتبط حبور .. »

ثم عاودني قول الحجاز بآبنة صاحب العمل وتخيلت « ماريما
دورنيكوف » مستلقية على ركبتى فى نفس الآونة حيث حيدته
على ركبته شعرت بنفسى أكره ذلك الحلم البغيض .

« من غروب الشمس الى شروقها »

« اغنية عذبة ، وكأس .. القديس يطلبها »

« ولولا كلمة - هم - فيها »

« لمتنع القديس نفسه بها »

كان يعقب الغناء صوت رخيم مثير ضاحك ، فتوجهت
ناحية النافذة واتكأت على ركبتى لأنظر الى مصدر الصوت ..
رأيت فتاة جالسة على طاولة صغيرة تكتب على ما يظهر رسالة
غرام ، ثم رفعت رأسها تفكر ، وحملت بريشتها الزهرية خصلة
من شعرها الأحمر الطويل ورفعتها الى الخلف بحركة مغرية جذابة ؛
كان صوتها ساطعاً ببسمة غارقاً بفكرة ، ساجحاً بملكوت عليها ،
وبحركة ظريفة مرغوبة ضوت الرسالة وغلفتها بمظروف انيق .

ثم تغير شكلها وأصبحت كأنها تهدد الرسالة ان لم تصل
مشيرة بأناملها الرقيقة مهددة اياها بمواعيد وكلمات . وسرعان
ما قطبت حاجبيها وعادت تفتح المظروف وتعاود قراءة الرسالة
ثانية بلمهة وهيام ثم وضعتها بغلف أجمل من الأول وعنونت
المظروف ورفعته الى الأعلى كأنه علم أبيض للاستسلام .

وأخذت ترقص على رؤوس أصابع أقدامها مرحلة مبدية
حركات مغرية ساحرة نائرة الى ان غابت لحظة في الغرفة الثانية
وعادت وقد خلعت قميصها العلوي لتبدو أشرق وأرق .
انحنى والتوت كأنها خيلو من عظام ، أو كأن هذه الصبية
من غصن ريان وأخذت المصباح من على الطاولة واختفت ثانية
ولم تعد .

عندما يبقى الانسان منفرداً في مكان ما فان حر كاته الطبيعية
تشدّ لتتغير ويعتقد الناظر بأن ليس هذا الا مجنوناً .

وتابعت طريقي عابراً الباحة ووجهتي الخبز وأخذت اتساءل عن
لون الحياة التي تعيشها هذه ، او غيرها ، في بيتها عندما يأتي لزيارتها
طالب شاب ذو شعر رملي . وفعلأ قد أتى هذا وجلسا يتكلمان
همساً ، وأصبحت هي غيرها منذ لحظات خجولة عاقلة تدير عينيها
بتؤدة خائفة .

اقتربت خلية الحجاز مني وهي ملتفة بشالها العتيق وقالت لي :
- ادخل .. لقد انتهينا .

وأخذ الحجاز يفاخر بحسارة الفتاة وبقوتها الجنسية أما النافشعرت
بالسأم المقيت وتكهننت بأني سأروح بين زوايا البؤس بعد مدة .

- ١٨ -

ثورة جسمي

كان الخبز ناجحاً تماماً في العمل . حتى أن دورينكوف فكر
بأن يفتح مكاناً أوسع ، ويضع مساعداً ثانياً معي فاستبشرت

بالراحة بعد أن اكل التعب كاهلي وحدي . وقد وعدني الحُبار
بقوله :

- ستصبح في المكان الجديد المساعد الرئيسي وسأطلب منهم
أن يرفعوا من راتبك الى العشر روبلات شهرياً ، وسأقول لهم
بأن هذا حق وواجب .

فهمت من فحوى كلامه هذا ، بأنه يريد أن اعمل مكانه ، انا
المحب للعمل وبالفعل اعتقد أن التعب يناسبني ، وبه اخفف من
غلاء تفكيري ويهدى من ثورة جسمي الصارخة ويقول الحُبار :
- اعمل هذه الكتب يا أخي ، انها لا تصلح الا طعماً للفئران ؛
دعها وشأنها وخبرني .. ألا تحلم أحلاماً جديدة جميلة ؟ وبالطبع
انت تحلم ، ولكنك مغلق الفم لا تكلم انسياً . تكلم لا خوف
على احلامك كلنا رجال .

وقد انقلب الحُبار معي رأساً على عقب إذ بدأ يحترمني الاحترام
الزائد ، ويمطرنني بالاجلال . وأظن انه يفعل هذا خوفاً من
صاحب العمل بعد ان تبين له اننا على وفاق ومع ذلك فانه كان
يسرق صراحاً أمامي وغصباً عني .

- ١٩ -

ماتت جدتي

لم استلم خبر وفاة جدتي الا بعد سبعة اسابيع من دفنها .
برسالة مقتضبة مختصرة تبين أن الجدة قد سقطت من مدرج

الكنيسة حين كانت تتسول وكسرت ساقيها ثم تفسخ العظم وتسهم الدم .

وقد علمت أن جدي - هذه المتسولة - كانت تعيل اولاد احد ابناء عمي الثلاثة ، وقد كتب لي ابن عمي في هذا الصدد يقول :

- لقد واريناها التراب في باحة كنيسة « القديسين بطرس وبولس » حيث يرقد فيها كل اقاربنا . لقد بكى على رمسها كل شحاذي البلد ، لانهم كانوا يحبونها حباً صادقاً ، وحين اتى جدي ، طردنا جميعاً فأختبأنا خلف بعض الاشجار نرقبه ، فبحنا على ركبتيه قرب قبرها يناجيها بانه سوف يموت قريباً بعد ان فارقه حليته . اما انا فلم أبك ولكني شعرت بلفحات مثلية تلفح جسدي الهزيل فتهزه هزاً فجلست على بعض الأخشاب المتراكمة فوق بعضها في الباحة .

شعرت بشوق مرير للتحدث الى أي امرئ عن مزايا جدي ، تلك الحكيمة العاقلة ام الجميع ومن أمد طويل حملت هذه الرغبة المنطوية في نفسي التي تريد أن افرج عنها لاني كان . وحين لم اجد شخصاً أخصه بهذه الذكريات بادت او كادت أن تبديد .

وقد تذكرت قصة لانطوان تشيخوف ، كان بطلها حوذاً يكلم حصانه بعد موت ابنه ، ولكنني هزئت من نفسي باني لا أملك حصاناً اكلمه عن حزني ولا حتى كلباً ، كان في الخبز جرد ولكنني ما تجرأت على أن اكلمها بمصائبي لأن عددها كبير كما أنها لا تظل صامتة ، مع اني كنت على أحسن العلاقات معها .

أخذ الشرطي «نيكي فوريج» يحوم حولي كأنه الباز المفترس
كان طويل القامة ، حسن الهندام ، شعره فضي لامع قصير ،
وذقنه عريضة ومرجلة . كان ينظر نحوي كمن ينظر الى اوزة
سمينة ، وقد قرب عيد الميلاد ويقول :

- لقد سمعت بأنك مغرم بالقراءة ، أليس بصحيح ؟ .. وأي
نوع من الكتب تقرأ ؟ التوراة ام قصص القديسين . ؟
- نعم ، لقد أنهيت قصص القديسين والتوراة ..
فبدأ العجب على وجهه ، ثم قال مهممماً :

- حسناً .. قراءة شرعية ومفيدة .. وماذا تعرف عن
« الكونت تولستوي » ؟ . أقرأت عنه شيئاً ؟ ..

لقد قرأت بعض مؤلفات تولستوي ولكنها - والحمد لله - من
الكتب التي لا تهم الشرطي وقلت له :

- وما هذه المؤلفات ؟! كتابات عادية بسيطة ، يجيدها كل
إنسان حاول أن يقلدها . ولا أنكر ان له مؤلفات تستحق القراءة
حيث يهاجم فيها الكهنة وأعمالهم .

وإني وإن كنت أُلِمُّ بأكثر مؤلفاته ، فقد تحاشيت المناقشة
مع الشرطي لأنه ليس أهلاً لهذا . وتعددت المقابلات بيني وبين
الشرطي ، وتنوعت وجهات الأحاديث بيننا الى أن اتى يوماً
ودعاني لزيارته قزلاً :

- أرجو أن تزورني في بيتي لشرب كأس شاي معاً .
في الحقيقة لم تكن نواياه شرب الشاي ، إنما يهيمه مني امر آخر ،
لم أستطع فهمه ومع ذلك فقد واثقني رغبة الذهاب . فذهبت الى

الغرفة خلف الحانوت ، واستشرت الاصحاب فقرر الجميع أن
أذهب وليس من اللائق أن أهرب من ضيافة الشرطي لأنه سيزداد
شكيمة عليّ ، وحقداً على الخبز . لذا فقد دخلت داره في
الوقت المحدد .

غرفة صغيرة تحوي اشياء كثيرة .. مدفأة روسية في الصدر
وسرير واسع في الوسط ، وعلى اطراف الغرفة طاولة ومقعدان ،
والى جانب النافذة الصغيرة مقعد خشبي عريض . كان يجلس على
هذا المقعد بسترته المفككة ، مغلماً النافذة بظهره العريض .
وجلست إلى جانب زوجته خلف الطاولة . كانت هذه في عقدها
الثاني ، صبية أنيسة لها عيمان جذابتان لونهما غريب إلى الناظر إذ
تختلفان بين الرمادي والأزرق ، ومن عادتها الدائمة ان تلمظ
شفتيها العندميتين ، وحين تتكلم تعلم انها تخفي بعض الحبث خلف
أنسها ، وقال الشرطي :

- لقد ربيت عندي طفلة ، واصبحت الآن مومساً صغيرة .
وسمعت انها تحوم حول مخبزكم ، إنها فتاة مردولة أو بالجري كل
النساء كذلك .

فانتفضت الزوجة غاضبة وسألته :

- كلهن .. ؟

فأجاب بشيء من العنجهية المتكبرة ، محدثاً صوتاً منبعثاً من
تصادم أوسمته المعلقة على صدره ، كحصان ثار في مكانه .
- نعم ولا واحدة أنفيها من هذا اللقب .

كان يرشف الشاي من كأس امامه وهو يردد بعض الكلمات

الفضة يلقيها على مسمع زوجه :

— كلهن مردولات ، من ابنة الحانة إلى سيادة القصر ، لا استثنى منهن واحدة ، ان قصة ملكة سبا معروفة لديك ، كيف عبوت ألفي ميل وسط الصحراء لتبلغ الملك سليمان لارواء لذتها وشهوتها . وقيصرتنا هذه التي ينادونها بعظيمة مثلها . ولكن ماذا أقول !! ..

ويقصُّ عليَّ الحفلات الخلاعية التي تقيمها في قصرها الامبراطوري وروى لي كيف ان رقيباً شاباً في الجيش سهر معها ليلة ، ولم يستيقظ من سريرها في صبيحة اليوم التالي الا وقد رفع إلى رتبة لواء .

كانت زوجته تستمع الى مايقول وهي تتلمظ بشفتيها من آن لآخر ، وتقرب ساقها من ساقى دون ان يشعر الزوج ؟ ثم غير حديثه قائلاً :

— والآن يا صاحبي .. يوجد في شارعنا شاب طالب في الجامعة اسمه « بلتنيوف »

فتنهدت زوجته بشوق وقالت :

— كم هو جميل وظريف يا نيكى ! ..

— من هو ظريف ؟

— السيد « بلتنيوف »

— احذ في لقب « السيد » اولاً لأنه لم يفته من الجامعة ، انما

هو طالب كأمثاله الآلاف ، وثانياً ماذا تعنين بكلمة ظريف ؟

— اعني انه مرح في سن الشبيبة

- اعتقد ان المهرج على المسرح مرح ايضاً ..
- ولكن شتان بين الاثنين ، المهرجون يأخذون ثمناً لتهريجهم
انما هذا فسجيته مخلوقة على التسلية
- اسكتي .. اسكتي .. وقد يبدو الكلب في سن الشبيبة !
- ليس المهرج الا قرداً يلعب من دون ادراك .
- أمرتك بالسكوت . اتسمعين ؟
- نعم .. اسمع .
- حسناً ..
- وعندها صمتت زوجته . والتفت نيكي ناحيتي ليتابع قوله :
- يجب ان تتعرف عليه لأنه شاب له قيمته في الحياة .
- ولكني أعرفه .
- أجبتة باني اعرفه لانه رآني مرات وانا اسيره في الشارع وقال :
- هل تعارفتما ؟
- وهمهم باستنكار ظاهر وغضب متخف ، وبينما مد بساط حديثه
كأنه ذيل ريش نعام قد انبسط على جانبي الطير ، كانت تمنعني
زوجه من الأصغاء اليه اذ تلاطف الساق بالساق وتحاول ان توقعني
في حبها ، ثم قال اخيراً :
- هناك خيط ملحوظ في دنيانا . افهمت ؟ هذا الخيط موصول
بالمملك ، وهو العنكبوت .
- فصرخت المرأة قائلة :
- ماذا تقول ؟
- اصمتي يا حمقاء قليلاً حتى اعرف كيف اوضح له غايتي

اذهبي واصلحي المدفأة

وبعد ان خرجت اضاف قائلاً :

— خيط خفي كخيط العنكبوت ، ممتد من القصر اسكندر الثالث امبراطور روسيا حتى وزراء جلالته ثم الى الحاكم وبعده الى ذوي الرتب العالية .. لتصل إليّ وإلى ابسط جندي في قيادة الجيش ، سلطان هذا الخيط ؟ سلطان القصر وعلينا نحن اصحاب الخيط — ان نحفظه من الدسائس والدخائل .

ومع ان الانكليز والبولونيين ، وبعض الروس يحاولون جهدهم تمزيق هذا الخيط انشئ كان وبأي مكان مدعين ان ذلك لصالح الشعب .

ثم انحنى على الطاولة مقترباً مني ، هامساً في اذني بشكل غامض :

— افهمت ؟ اعلمت لماذا اكلمك بهذا الشكل ؟ .. ان الحُبار يمدحك ويقول بانك شاب نشيط وشريف ومنطوي على نفسك . اني ارى جماعات من الطلاب تحوم حول مخبزكم كل مساء وحتى ساعات متأخرة من الليل ، وهم كثير والعدد . ماذا يقصدون باجتماعهم هذا ؟ عفواً . انا لا اقول شيئاً عن الطلاب ابداً . اذ ان طالب اليوم مساعد النائب العام غداً . وحياة الطلاب واعمالهم محبوبة مشفوعة تماماً ، ولكنني انتقدتهم لأنهم يسرعون في تخطي سبل الحياة بخطى غير مترنة ، ويندفعون مع أناس هم اعداء القصر ويثورون ضده . اعتقد انك فهمت ما اقصد من كل كلامي هذا ؟ وامر آخر اريدك ان تعلمه وهو ...

وقطع حديثه دخول رجل عجوز ، ضعيف الشكل هزيله ،
في يده زجاجة من الفودكا ، ويظهر من سيماؤه انه شرب الكثير
منها ونظر الى الشرطي بانفه الاحمر وقال :

- هل تلعب الشطرنج ؟

وعرفني نيكي به قائلاً بجرعة فيها قليل من الاهتمام :

- انه والد زوجتي ..

واستأذنت منهم السماح ، وأوصلتني زوجته الى الباب وقرصتني
وقالت :

- ألا ترى الغيوم ؟ انها أصبحت حمراء كالنار ..

لقد استفدت كثيراً من زيارتي للشرطي ، اذ انه اعطاني
فكرة صادقة وشرحاً وافياً عن هيكل الحكومة .. يمتد خيط
العنكب .. يلقي بخيوطه على مظاهر الحياة وقد شعرت آنئذ أن
الحيط يلففني أنسى ذهبت .

وبعد ان اغلقنا الحانوت دعمتني ماريانا الى داخل الغرفة واخبرتني
بأنها كلفت ان تسألني عما حدث لي مع الشرطي وعندما أفرغت
لها ما في جعبتي من كلام قالت :

- رباه ! .. أخلية الجباز هي احدى أقارب نيكي فوريج ؟
ولكن .. أمن الممكن أن يكون الجباز جاسوساً ومحاول
استخلاص بعض الأسرار منك ؟ . من الواجب طرده من المخبر .
ثم اقتربت ماريانا من النافذة تحملق في الفضاء وأنا أرقبها عن
كثب ، حاقداً عليها لأنها استعملت كلمة خلية باهون استعمال
أولاً ، ولأنها ارادت التخاص من الجباز ثانياً ، ثم استدارت

نحوي قائلة :

- كن حذراً من الآن .. انتبه تماماً يامكسميتش .
- كانت نظراتها نحوي ثاقبة فاحصة ، محاولة استنباط أشياء خفية من ذاتي ، ولكنني لم افهم من هذه الأشياء شيئاً .
- ثم اقتربت مني ، ويداه خلف ظهرها ، وقالت بجنان :
- فيم حزنك الشديد هذا ؟
- لقد توفيت جدتي من مدة قريبة .
- فبان وجهها وقد انبسطت أساريره وأجابتنني والبسمة مازالت عالقة على ثغرها :
- أموالع بها الى هذا الحد ؟
- نعم .. وهل ترغبين امرأ آخر ؟
- ... كلا .

وغادرت المكان وانا اقرض بعض الشعر في هذا الموقف في تلك الليلة .

« لقد ظهرت لي .. »

« ولكن ، لست كما ترغبين »

انقطع الطلاب عن الاجتماع في الغرفة فلم أعد أراهم لاستفسر منهم عن بعض الكتب التي اطالعها ، لذا شرعت بتسجيل الافكار التي من المستحيل علي فهمها في مذكرياتي . وفي احدى الليالي أطلت في كتابتي الى ان غفوت دون أن اشعر ما كتبت فقرأها الحجاز عندما استيقظ صباحاً ، من بين اصابعي ، وافقت على صوته الاجش وهو يقول :

- ما هذه السخافات التي تكتبها ؟ .

« لماذا لم يطرد غاريبالدي الملك ؟ »

ومن هذا غاريبالدي ؟ ومن يستطيع طرد الملوك ؟
ثم قذف بالكتاب في وجهي ذاهباً الى مكانه قرب النار وهو
يعاود كلامه باستهزاء .

- طرد الملوك ؟ ! عجيب امرك يا فتى ! .. ان هذه الافكار
تخطم لك مستقبلك . منذ خمس وأربعين حولاً كان رجال الامن
يقبضون على امثالك وكذلك الآن . إن نيكي فورييج يرقبك
ويلحق آثارك .. ولكن أنظن أن الملوك حمام نصطادهم بهذه
السهولة ؟ ..

كان يحدثني بكلمات تنم عن طيبة قلب وحب ولكني وعدت
نفسي ألا أحدث أي إنسان عن أمور سياسية خطيرة .

- ٢٠ -

الفكر الثائر

تداولت الألسن بأن كتاباً ثورياً مشيراً يقرأه الجميع ، اذ
ينقل من يد الى اخرى ، وقد يتشاجر بعضهم من أجله وطلقت
من صديقي « لافروف » البيطار أن يحصل لي على نسخة ولكنه
أجاب بيأس :

- من المستحيل الحصول عليه يا صديقي .

ثم الحق كلامه فكانه وجد شذاة أمل :
- بإمكانك سماعه . إذ سيُلقى في دار أحد اصحابي بين جمع
غفير .

في منتصف ليلة عيد صعود العذراء الى السماء وجدت نفسي
انقاد في الظلام واتخبط بين دياجيده في شارع « ارسكويه بوليه »
يهديني السبيل صديقي « لافروف » واقتربنا من حقل مهجور بعيد
المدى وأخذنا في عبوره مخلفين وراءنا المدينة بأسرها حتى الأكاديمية
اللاهوتية .

وتسلفنا حاجز البستان يواجهنا باب خشبي ، فضرب لافروف
النافذة ضربات متعاقبة ، وبعد لحظة امتد منها رأس بلحية وخلفه
الظلام والسكون مخيان ، كأنه ظلام القبور وسكوت الأموات
وسأل بصوت خافتٍ راجف .

- من الطارق ؟

- اصدقاء لياكوف ..

- ادخلوا من النافذة .

عبرت النافذة ثم لحق لافروف بي الى ردهة حالكة العتمة ،
مليئة بالناس ومع أني لا أراهم فكنت اسمع سعالهم وحديثهم
المهموس وفجأة اشتعل في وجهي عود ثقاب وتكلم احدهم :

- هل اكتمل الجمع ؟

- بلى قد اكتمل ..

- اذن اسدلوا الستائر حتى لا ينبثق نور الغرفة الى الشارع .
فسأل احدهم غاضباً :

— من أراد ان يجتمع في مكان مهجور كهذا ؟ .

— اخفض صوتك يا هذا .

واشعل احدهم مشكاة صغيرة فبانَت الغرفة للعيان فارغة من كل اثاث يجلس البعض على الواح خشبية ، والبعض جالسون على الارض ما عدا رجل ذي لحية متراخية . وهو الذي تسكلم الآن بانه سوف يقرأ لنا كتاباً عنوانه « فوارقنا » تأليف الكاتب جورجى بليخانوف ، العضو في « نارودنايا فوليا » . فقال احدهم :

— لا حاجة بك الى التفصيل ... اننا نعلم كل ذلك .

شعرت شعوراً بمتعة من هذا الموقف ، ربما ولّدته الغموض المستحوذ عليّ . هذا الجو الذي يذكرني تماماً بعهود المسيحيين الاولى التي كانت تجري طقوس دينها في كهوف تحت الأرض ، ثم تلاعبت الأصوات والمناقشات من هنا وهناك ، ولكن صوتاً ظاهره بعض السخرية اللاذعة صاح :

— هل قررتُم نهائياً قراءة الكتاب ؟ ..

فصمت الجميع وبدأ الرجل بقراءته ، كنت ألاحظ - حين يشعل احدهم ثياباً - وجوهاً مفكرة وعيوناً تضيق قليلاً لتزيد بحجوظها ومنهم من سئم البقاء لا شيء ، انما لطولها . ومع ذلك فالقراءة كانت بمثابة أفكار محفورة في أدمغة ذكية عاقلة .

وفجأة ودون ان يتوقع أحد ، توقف القارئ عن متابعة القراءة ، فدوت في الغرفة صيحات صاخبة :

— يا للبخائن ! . ضوضاء فارغة ! .. لا يهدر دم ابطالنا البهرة !

الوجيز أوليانوف .

وتكلم الشاب بصوت مرتفع :

— ايها السادة .. لو كففنا عن لعن الناس واخذنا نتناقش جدياً
أما يكون هذا احسن لصالحنا؟ .

أما انا فلا أحب المناقشات ابداً وحتى ابغضها ولم اتمكن من
ان اتبوأ يوماً مقعداً بين المتناقشين ولا ارضى لنفسى الجود امام
حركات فكري الشائنة . ولكم كنت احتقر المتناقشين
المتعجرفين .. ثم انحنى وقال القارىء لي :

— انا « فيدو زيف » . ألسنتي بيشكوف؟ .. يجب ان
نتعارف ونتعاون يا صاحبي الآن ولا تهتم بهذه المناقشة لان
الضوضاء ستمتد الى اكثر من عدة ساعات فلنخرج الى الحقل
ونتسل بأى امر .

لقد سبق لي وسمعت عن هذا الشاب وعن ندوته التي اسسها
بمساعده ، وانتقى أعضائها من بين جماعات الشباب ذوي العقول
الراجحة والثقافة الحسنة .

كان يجذبني بعينيهِ العميقتين المفكرتين . وبوجهه الشاب
السوداوي ، وفيما نحن نجتاز الحقل سألني عن حياتي فيما اذا كنت
على صلة وثيقة بالعمال ، وعن الكتب التي اقرأها ، وهل لدي
ساعات فراغ؟ ثم اردف :

— لقد سمعت الكثير عن مخبزكم وعلمت انك تفقد جل
ساعات يومك في اعمال سخيفة . حرام ان تضيعها هدرًا هكذا
يا أخي .

وظللت بعدها شهراً ونفسي تردد كلامه باني لن استفيد شيئاً
في حياتي القادمة من هذا الحُبز . واثناء افتراقنا صافحني بحرارة ،
ووجهه محلياً بابتسامة ظريفة ساطعة ، واخبرني بانه على وشك
مغادرة المدينة بعد غد وسيستغرق في تجواله ثلاثة اسابيع وانه
عندما يعود من سفره سيخبرني أين يلقاني .

انقلت حياتي من سبىء الى أسوأ مع كركر الأيام ، وزادت
بي حرجة ، اما الحُبز فقد تحوّل الى مكان جديد وتحول معه عملي
انما بازدياد ملحوظ ، إذ عليّ ، إن أوزع الحُبز للبيوت وأبيع
الكمك في الأكاديمية ، وفي مدرسة البنات الراقيات . وهناك
كن يرمين لي بعض الرسائل في سلاتي وهنّ 'يخرجن الحُبز' ، فأرى
عند المساء الرسائل وأدهش من هاته الكلمات التبيحة التي يستعملونها .
كان هذا العمل يحضني على أن أبحث بين الفتيات الجميلات ،
وهنّ يتغامزن حول السلة بأعينهن الساحرات لأعرف من منهن
تلك التي تضع لي هذه الرسائل الوقحة كل يوم والتي لا تفهم معناها ،
وانا واثق من ذلك ، فانساءل عما اذا كان خبر المواخير قد
استرسل ووصل الى هذه المدارس .

وفيما كنت عابراً ذات يوم الممر المؤدي الى باحة المدرسة
همست بأذني فتاة سمراء نضيرة ، ذات شعر اسود ملقى على
كتفها :

— اذا أوصلت لي هذه الرسالة فاني أعطيك « كوبيك » .

كانت عيناها السوداوان تفيضان بدموع حارة وتعض على
شفتيها بنجمل ، وانقلب وجهها وأذناها الى جر متقد ، فرفضت

المال منها بإباء .

وأوصلت الرسالة الى الطالب ، إنه طويل القامة ، ابن احد رجال القضاء الممتازين . وحين استلمها مني اخرج إلي خمسين كوبك عاداً اياها ببطء وسكون ، وعندما اخبرته بانني لا اريد اجراً سارع الى المال ووضع في جيبه ، فرحاً راجفاً ، حتى ان المال باجمعه قد سقط على الارض وراح بين جنبات الغرفة فرفع وجهه إلي بتنهدة عميقة وقال بنزق :

— وماذا بعد ؟ اريد ان افكر .. ألا تذهب ؟

وحاولت ان اقابل الفتاة ، فلم اتمكن ، وعندما ذهبت الى بلاد القرم وجدتها وقد اصبحت معلمة فيها ، لقد كانت مسلوقة هزيلة لذا فقد حدثتني عن الحياة بمرارة محرقة ، لكأن الحياة أذنبت معها ... وفعلاً أذنبت .

وعندما انهي تسليم الخبز وبيعه قبل الظهر ، كنت انام ساعات طويلة وفي المساء اخبز الحلوى لبيعها في الحانوت بعد منتصف الليل لأننا بقرب مسرح المدينة ويتهافت الناس والممثلون على شرائها عقب التمثيل ، ثم اعود الى الخبز واجهز المعجن واطبخ فيه الطجين لأعجنه في اليوم التالي . ولم يكن شغلي إلا عمل شاب مقتول الساعدين إذ أعجن كل صباح خمسة عشر او عشرين رطلاً .

ثم استلقي على الارض متعباً لأغفو بضع ساعات ولأستيقظ من جديد وأوصل الكعك لاصحابه ...

وهكذا دواليك ... تسير بي الحياة مترادفة متتالية لا تغيير فيها ابداً ، وباندفاعي الكلي في عملي ، كنت افكر في ميول عالية

وأشياء غامضة كالْحِكْمَة والْحَقِّ ، والْخُلُود . أصبحت اجتماعياً بطبيعتي وانبرى لساني يتكلم في كل مناقشة او خطاب ، وشرع خيالي يتوهج بالتراجم والكتب . كان باستطاعتي ان اجعل أبسط حادثة قصة جميلة تدور حوادثها حول اقوال الشرطي وخيطة غير المرئي .

- ٢١ -

الملحد !

أمسى أخيراً لي بعض الاصحاب في مصانع « كريستوفينسكوف وآلافوزوف » وبخاصة عامل نسيج كبير السن يدعى « نيكيتا روبتوف » كان ماهراً في عمله ، وروحه حية طليقة ، وقد اشتغل في اكثر مصانع روسيا ويقول :

- لقد تخطيت هذه البسيطة سبعة وخمسين عاماً يا اليكسي الحبيب ..

كان يحدثني بكلمات ظريفة جداً ، بصوته الرخيم الجميل وتحلي وجهه بسمه ليست اكثر جمالاً من عينيه الرماديتين المتورمتين ، خلف نظارتين سوداوين ، مشتبكة باسلاك نحاسية ، قد علقها الصدا بنقاط خضراء .

ومن بين اصحابه « دوبتوف » الذي يدعى بالالمانى لانه يحلق ذقنه تاركاً بضع شعيرات متدلّية من عثونه ومتصلة بشاربيه المتصلبين . كان ذا صدر عريض ، مرحاً محبوباً ، معتدل القامة

على اناقة ، ويهز رأسه الاصلع حين يتكلم ويقول :

- انني احب السيرك . كيف يستطيعون تدريب هذه الخيول !! .. مع انها حيوانات بهيمة ، وتجبرني على ان اقدرها فأفكر في نفسي .. يجب ان يضعوا أسساً ثانية لتعليم هؤلاء البشر ، انهم بعلّامون الحيوانات بقطعة من الحلوى ، اما نحن فبامكاننا شراء الحلوى من السمان ، لذا على المدرب ان يأتينا بحلوى روحية غير هذه الحلوى يمكن ان تسمى الرأفة . وحتى نربح معركة الحياة علينا ان نستعمل الرأفة مع الآخرين . وليس من المستحسن استعمال العصا كما يحدث في عالمنا الحاضر .. ألا ترى معي بصحة قولي يا شاب ؟ ..

ومع ذلك فهو نفسه لم يعالج الامور بالرحمة التي ينشدها ! وعندما يناقش احداً يجيبه بسخرية لاذعة وكلمات ان توقفت في صيغ عنوان لها فليس اجمل من «الشتائم» . قابلته لأول مرة في حانة صغيرة وقد قارب الناس ان يهاجموه حتى انه 'لطم لكمة او لكتمين فاسرعت لانقاذه من الحانة ، وهكذا اصبحتنا صديقين ، وسألته حين كنا نعبّر الظلام بوابل من مطر الخريف :

- هل أوديت كثيراً ؟

فاجاب بشيء من الاحتقار :

- انا ! لا يدري احد عاقبة ذلك .

كانت هذه المصادفة اول تعارفنا وحاول ان يهزأ بي مرات ولكنني اخذت اصف له ذلك الحيط الذي يدور بحياتنا فهتف بجد :
- لا ، لقد اخطأتك ، لست باحمق ابداً .. و ان رأيك

صائب تماماً ..

ومنها تغير اتجاهه نحوى الى عطف ابوي رؤوف حتى انه
يدعوني باسمي الكامل :

- يا طيرى البديع ، يا اليكسي العزيز ، يا مكسميتش انها
لأفكار حقيقية ، ولكن تأكد بانك لن تحصل على شريك لك
يقبل افكارك .. لذا فهي لا تثمر .

- ألا تؤمن بها انت ؟

- انا ؟ ! أعتقد بـافكارك ، وانا صاحب افكار ؟ ! ان كل
الناس ما هم الا كلاب أليفة السفيه ، ويزعجهم وجود الذباب تحت
اذنهم ، وقد علق بي ... زوجات ، اولاد ، مطالب ورذائل ..
وأمر كثيرة اخرى .. وكل كلب من هذه الكلاب يعبد مأواه
ولا يتركه ، لقد سبق واحينا مثل هذه الافكار في مصنع
«موروزوف» ولكن الذين قادوا الحركة بأجمعهم وقعت رؤوسهم .
وان رأسك - بهذه الافكار - لجدير بان يقع ، واذا خسرت
فستبقى ذكرى الصدمة عالقة بمخيلتك .

وفجأة تغيرت حياته وركنت الى الهدوء حين تعرف على
« ياكوف شابوشنيكوف » العامل في مصنع « كريستوفيزلوف » .
كان هذا مسلولاً ، ماهراً في عزفه على القيثارة ، يسحر الالباب
بها ، ولكن « روبتشوف » دهش حين انكر صاحبه الآله وكان
ياكوف يناقش بحدة ، وعقيدة متينة ، وبين آن وآخر يبصق
بقعاً من دمه ، المليئة بانسجة الرئة الميتة ، وكان يقول - وما
اكثر وأبعد خطاه :

اولاً : اني لم اخلق على صورة الله ، ولا اشابهه ابداً ، اما
حكمة الانسان فانا جاهل عن كل امر ، وأما القوة فاني لا استطيع
الحراك ، او الطيبة فاني ادرى بنجبت طويتي . وثانياً : اما ان
الله يجهل قساوة الحياة عليّ او انه يعرف كل شيء ، وما بجيلته اي
شيء او انه يستطيع ان يساعدني ، ولكنه يترفع عن ذلك . وثالثاً :
ليس الله مصدر الحكمة ولا مصدر الرحمة انه وبكل بساطة غير
موجود ! . ان حياتنا وحيدة ومندفة ولا يستطيع انسان ان
يستسخر عقلي ويقنعي عكس ما افكر به !! .

من عادته ان يتحمس في بدء كلامه ثم يعود ليغضب وليصبح
بانفعال شديد وكذلك حصل ، فأخذ بالشم والسباب وحاول
ياكوف إسكاته فلم يتمكن الا ببعض آيات من التوراة ، وشفاهه
ترتجف بهلع مرعب ويكشر عن انياب كأنياب الذئب وهو يخلق
برفيقه بنظرة تذكرني بمريض العظمة .

وعندما يتركنا ياكوف ، يعجب روبرتوف منه إذ يقول

لي بمجدة :

- لم يحدثني احد عن نكران الله بمثل هذه الوقاحة ! حقاً
سمعت شيئاً عن الاحاد والزندقة ، ولكن ليس بهذه الحدة .
تذكر قولي ، لن يعيش طويلاً من الحاده المفرط وسترى عاقبة
نكرانه هذا .

ولكنه تعلق بياكوف تعلقاً زائداً لبعده عن هذه الفكرة
وشغف بمحديث الطالب المسلول ، وبعادته حتى انه حين يتكلم
يصبح ناثراً ويقول له :

- لئلا انتهت قضية الشرك بالله ، وابدأ بالتكلم عن القيصر .
بإمكانني أن أحدث عن مثالبه الكثيرة بلا خوف ولا وجل ..
ليست المتاعب من القياصرة إنما مصدرها أرباب العمل ، فأنا مستعد
للعيش تحت سلطة أي قيصر وأستطيع أن أقول « ابق على عرشك
يا قيصر ، واحكم إذا أسعدك الحكم شريطة أن تحاسبني مع صاحب
عملي بحق فان فعلت فاني سأحيط عرشك بسلاسل من ذهب وأكاد
أعبدك أيضاً .

وبعد قراءته كتابي « الملك جوع » كان يقول معجباً :
- ان قول الكاتب حق يا أليكسي .. قدّم تحياتي للذين
كتبوه لك .

يجب روبرتوف أن يطلع على كل أمر ، وهو فضولي لأقصى
الحدود ، لذا فإنه كان يتتبع خيط شاكوشنيكوف من اللسان
ومن خطواته ، وحين يجلس أمامي وأحدثه عن الكتب والكتاب
يسرّ كثيراً ويققه بصوت عال ويقول :

- أعظم شيء هو عقل الانسان ، ذلك العقل الماهر .
كانت أفكاره الغنية تدهشتني حقاً ، ثم يستدير نحوي ليكلمني
وهو ينظر بعينه المتعبتين :

- يوجد في بلاد الألمان نجار فريد البديهة ، ليسن الذكاء ،
يستشير الملك دوماً في أصعب أموره . وحين استفسرت منه عن
اسم ذلك النجار فهمت من أنه يعني « بابل » فعجبت وسألته عن
معرفته به فأجاب :

- أعلم كل شيء يا صاحبي نعم .. أعلم .

لم تكن الحياة لتهمّ شاكوشنيكوف ، ولم يفكر في ان يعبر
قلاقلها ، انما همّه إعادة التفكير بالاله وإعجاز رجال الدين ويدي
دوماً غضبه من الرهبان وسأله روبرتوف يوماً :

— لماذا يا كرف تصب جام غضبك على الله وليس على غيره؟
فيجيب بصوته الصاخب المتفجر :

— وأي شيء حال دون السير بي في الحياة غيره؟ منذ عشرين
عاماً كنت أؤمن به ايماناً صادقاً . عشت فيها في خشوع ورهبة
منه وأتحمل كل سلطة تقذف بي لأني اتذكر الآية التي تقول
« كل سلطة تأتي من الله » . قضيت كل حياتي معللاً بالخوف ،
وصدف ان قررت قراءة التوراة بعناية فראيت كل شيء فيها
مختلفاً يا نيكيتا .

كان يواصل كلامه وهو ، وأنا شاكٌ في صدق تعبيره :
— وها أنذا أموت قبل أن يحين حولي وكل ذلك بسبب
ايماني هنا .

— ٢٢ —

الهوى البائس

كثرت معارفي وتعدد اصحابي وأصبحت مجبراً لان أضع
الأوقات المعينة لزيارتهم ، وحين أذهب لزيارة اصدقائي الطلاب ،
يسرون بي ، ويهتمون لاحاديثي الجديدة ويصغون اليها .
اما روبرتوف الذي يعيش في حي الأميرالية ، وشابوشنيكوف

في حي التتار، فالمسافة بعيدة بيننا لذا استعالت علي زيارتها. و كنت لا أملك غرفة استقبل بها أصحابي والسبب الأهم هو الحجاز الجديد - جندي متقاعد - فهو صديق لرجال الشرطة ، وباحتنا مطلة على باحة رئاسة الدرك كذلك ، ومن آن لآخر يتسلق الجنود الحجاز الفاصل بيننا ليشتروا خبزاً ممتازاً للعقيد « كانكارو » وخبزاً أسمر لأنفسهم ، أضف الى كل هذه الامور بأني أخبرت باللائمة ادى بأقوالي لنتجنب الشبهات على مخزننا .

ليست حياتي في تلك الآونة بخميدة ، انما هي خاسرة من اي وجهة اقصدها ، وكذلك أصحاب المخبز ، إذ أنهم يأخذون المال من علبة النقود دون ان يحسبوا لاثمان الطحين حساباً ، ويقول لي اندريه دوماً :

- اني على وشك الافلاس .

كانت حياته الصعبة تشابه حياتي ، إذ تتطاع اليه « ناستيا » كتطلعها إلى العالم الذي لا يثق بأحد ، وتمر من جانبه ، وكأنها لا تعرفه ، متابعة مهامها . فينظر اليها ويتنهد بحسرة عميقة مكبوتة وحين يراني يشتكي لي من معاملتها القاسية هذه ، ومن اصحابه الاعداء .

- لم اعد اثق بنفسي يا أخي . إذ اني اشترت البارحة ستة جرابات ، ولم يمض اليوم حتى سرقت جميعها .

قصته مضحكة ، ومع ذلك فاني لم أضحك ، إذ اني افكر بهذا الانسان الفاضل النقي من كل انانية والذي يناضل في خضم الحياة كي يصل الى مبتغاه ، ولكن اصحابه يهدمون ما يبنيه .

لم ينتظر دورينكوف من الذين يخدمهم امتناناً ، إنما من انفسنا
علينا أن نشكره خالص الشكر على هذه النفس الطموحة . لقد بدأت
عائلته تتمزق إرباً إرباً . . فالاب اخذت قواه تنحط ، وتغلظ
عصبيته التي تتمركز بأموره الدينية ، والاخ الاصغر انغمس في
بيوتات الفحش بين الثدي والكأس ، وأضحت الاخت كأنها في
غرام بائس ، وكثيراً ما رأيت عينيها وقد تورمتا من البكاء .
و كنت أظن أني احب ماريا وبنفس الوقت أهوى زميلتها التي
تشاركها العمل في الحانوت واسمها « ناديشتا شارباتوفا » . وهي
ذات خدين أحمرين وشفطين جذابتين ، وعلى ثغرها ابتسامة خالدة
جعلتني أعشقها .

من جراء الكبت الشديد الذي اكتنفني ، أحسست بضرورة
ماسة لرفقة امرأة . إذ أصبحت الآن بحاجة الى عطف أنثوي أو
على الأقل الى صداقة امرأة صادقة . كنت بحاجة الى شخص اتحدث
اليه عن نفسي دون أي حازر أو مانع ، ليساعدني على ترتيب
أفكاري والانطباعات الجامحة التي كانت تعتريني ، ولم يكن لي
صديق حميم أخلص له .

لم اكن مندفعاً نحو الاشخاص الذين يرون بانني لست إلا
مادة بسيطة يجب تهذيبها وصلقلها ، وكذلك لم يشجعوني على
الاقدام اليهم ، واذا حاولوا ان يكلموني كنت احاول جاداً
محادثتهم عن مصالحهم التي تههم فقط .

عدو حميم

اخبرني « نيكى فوريج » بان كوري بليتموف سيمر مخفوراً من هنا الى السجن في « سان بطرس برج » . وحين مر رفع يده وحياني دون ان يعلّق لسانه بكلمة وفجأة وقف تجاهي وقال بصوت جهوري ثابت :

- لقد اوقف الليلة السابقة « كوري اليكساندروفيتش » . ثم اخذ يتطلع اليّ بعينين صارمتين بيأس ، وأضاف قائلاً بصوت منخفض :

- مسكين هذا الصبي التعس ، لقد عطّلت حياته . وأخذت دمعاته تترجرج في ذيل عينيه لتحاول الانفلات من مكانها ، وقد حذرني منذ مدة بان ابتعد عنه ، وكان قد طلب مني أن احذر « رابتوف » ايضاً الذي كان مولعاً به كما كان مولعاً بي .

وسألني نيكى فوريج :

- لماذا انقطعت عن زيارتي ؟

فذهبت اليه في نفس المساء ، كان جالساً على سريريه ، وزوجته تخطيط له سرواله وقال :

- ايه . . لقد وقع هذا ، وجدوا عنده مقلاة فيها حبر وهدفه طبع نشرات ضد القيصر لذا فقد اخذوه .

وبصق على الارض وقال لزوجته بحفاء :

- ناوليني السروال ..

فأجابته دون ان ترفع وجهها :

- انتظر لحظة .

ثم وجه كلامه نحوي :

- انها حزينه على ما اصاب الطالب وبكت طوال النهار ،

وانا حزين ايضاً على هذا العمل ، ولكن بالحقيقة يا اخي هل بإمكان

طالب ايقاف سلطة القيصر ؟

وعندما ارتدى سرواله قال لي :

- لن اتأخر ، سأعود بعد برهة ... وانت أشعلي المدفأة .

وظلت زوجته دون حراك ، وحين اغلق نيكى الباب وراءه

التفتت اليه ورفعت قبضتها مهددة مدممة وهي تقول :

- بنح بنح ايها الشيطان .

كان وجهها مشوهاً لكثرة سيل الدموع عليه ، ونهضت

مشتاقلة الى المدفأة واقتربت منها وهي تقول :

- سأأخذه حتى أجعله يعوي كذئاب الليل الجائعة ... لا

تصدق ايها الشاب ولا تصدق اية كلمة يتفوه بها ، وقصده من كل

هذا او ذاك - هدف حياته - اصطياد الرجال ، وانتبه منه انه

يعرف كل شيء عنك .

ثم اقتربت مني وكادت تلاصقني ، او تصطدم انفاسنا بعضها

ببعض هامسة بي كأنها تطلب صدقة :

- وانت .. ألن تكون ظريفاً معي ؟

مع اني لم احب هذه المرأة الا اني هصرتها بين ذراعي ،

ولاعبت شعرها الحشن لان عينيها مدموعة بألم دفين وسألتها :

- ومن يلاحق الآن ؟

- شخص يسكن عنه « ريبنوريادسكيا »

- وما اسمه ؟

فابتسمت قائلة :

- افرض اني اخبرتك عن كل ما تسألني .. ها هو آت ابتهدد ..

انه هو الذي لاحق كوري المسكين .

ثم تركتني وتشاغلتي في تنظيم المدفأة ، فدخل نيكي وهو حامل بعض الحبز والمربى والفودكا . ثم جلسنا نشرب الشاي وزوجته مارينا الى جانبي وهي تخدمني بكثير من مظاهر الصداقة وكانت تتطالع اليّ مداعبة وجهي بعينها السليمة الواحدة ، بينما زوجها اخذ يلقي عليّ دروساً :

- انه بين الافئدة حتى في عظامهم ... ذلك الحيط الخفي .
حاول ان تمزقه او ان تقملهه .

- ان القيصر بالنسبة الى الشعب ، يتساوى مع الله .

وفجأة كان يسألني :

- انك تعرف الكثير من الكتب .. ألم تقرأ الاناجيل

الاربعة ؟ . وما تقول فيها ؟ .. أكل شيء فيها صحيح ؟

- لا أعلم .

- اعتقد ان هناك اشياء كثيرة عديدة النفع فيها فمثلاً « طوبى

للمساكين » أي شيء مبارك فيها ؟ . اما المساكين فالدنيا مملوءة

بهم ، منهم الفقير ومنهم الذي اصبح فقيراً بعد غنى ، فالاول اي

سعادة نالها والثاني اتاه الفقر من سوء حظه . ألسنت محققاً في
قولي ؟ .. اظن اني مصيب ..
- ولماذا ؟ ..

مضت برهة وتطلع إلى وجهي فاحصاً إياي ، ثم أردف كلامه
بوضوح واتزان :

- في الأناجيل إعانة وشفقة لكل فقير ، واعتقد ان الرحمة عمل
مضر ، .. الرأفة او الشفقة تعني صرف مبالغ زائدة على أشخاص
عديمي النفع يعيشون في ملاجئ الفقر أو في مستشفيات الأعصاب
او في السجون ، علينا أن نساعد الشعب القوي ليقوى ، والغني كي
لا يضيع غناه ... ولكن هل من يسمع ؟ .. كلنا نساعد الفقير
كأن باستطاعتنا أن نجعل من الضعيف قوياً ومن الفقير غنياً ، ثم
تعود المصيبة أدهى ، إذ تضعف قوى الأقوياء ليستخدمهم الفقراء .
لقد تطورت الحياة وابتعدنا عن دنيا الأناجيل منذ زمن ،
وتتبعنا طريقاً صائباً . خذ مثلاً قضية بليتموف لماذا سجن ؟ ..
سجن من جراء الرأفة بالناس . إننا نعطي الحسنات للفقراء ولا
نفكر بالطلاب وندعهم يحيون على اكتافنا .. أين المنطق في
كل هذا ؟ .

كانت هذه الافكار صادقة صريحة ، وهي الوحيدة المنتشرة
والراسخة بين الشعوب ولكن كلام الشرطي كان قوياً صادقاً تماماً
حتى انني قد قرأت بعد سبعة اعوام من ذلك الموقف فلسفة نيتشه
فكانت تشابه تماماً فلسفة الشرطي ، وقد يجد المرء في حياته افكاراً
قوية حقيقية لا يصادفها في اثن الكتب .

واخذ صياد الرجال يواصل كلامه ، وهو يطرق على حافة
الطبق طرقات رتيبة ، بوجهه المكفهر ، دون ان ينظر إلى .
وذكرته زوجته بأن عليه أن يخرج إلى وظيفته ولكنه لم يجيبها ،
إذ انه غارق في بحر كلامه ، وبلحظة أنهى حديثه ليخوض
في مجرى آخر :

- لست بالغبي ، ولا الأمي .. أينما سبك العمل في الخبز؟ ..
بإمكانك ان تجمع نفس المال إن لم اقل اكثر بقيامك بأي عمل ...
في خدمة امبواطورية القيصر مثلاً ..

كان عقلي مبلبلاً مشغولاً ، وانا اصغي الى حديثه ، اذ
كنت افكر كيف يجب ان أحذر الاشخاص الذين يعيشون في
« ريبينوريادسكايا » من هذا الشرطي اللعين الذي يتتبع اخبارهم .
ثم عاد نيكى فوريج إلى كلامه :

- ان الناهين من الشباب وذوي العقول النيرة يجب ان
يتجمعوا حول قيصرهم كتجمع النحل في خلاياه حول الملكة ،
او كالزناوير حول اعشاشها .

ثم قالت المرأة بصوت اللائم :

- انظر الى الساعة انها التاسعة تماماً .

- يا للشيطان !

ولبس نيكى فوريج سترة بسرعة وقال :

- سألتق وظيفتي بعربة ، الى اللقاء ايها الشاب اريد ان اراك

على الدوام في داري .

وعندما غادرت داره قررت في نفسي ألا ازوره ثانية

مع ان حديثه مغرٍ ولكنني كنت اشمئز منه ، وقد ازعجني تماماً حين قال بأن الشر يأتي من الرأفة ، وبقيت هذه الكلمات في حوزتي ، ولن انسها ابداً ، وليست مناقشة امثال هذه الاحاديث بنادرة ، انما تعددت الندوات بسببها ، وهي التي اقلقت توازن تفكيري بشكل خاص .

- ٢٤ -

الحب عماد الحياة

هبط المدينة رجل عبقرى ، من مبادئ العالم تولستوي ، وكان يحمل لونا من التفكير جديداً عليّ ، قامته طويلة وعظامه خشنة ذو حلية سوداء تشبه حلية التيس ، وشفته متدليتان مشققتان ، كأنهما شفتا زنجي ، احب قليلاً ، يبدو للناس انه يبحث عن شيء فقد في الارض ، ولكنه فجأة يقذف برأسه الى الخلف فتبدو عيناه بتأجج ملتهب ، وتخترق ما في طريقها لتصل الى ما في داخل النفس من خبايا ، والكراهية الباحثة عن الحقد تلمع بنظرته .

كانت المناقشات تدور في بيت احد اساتذته الجامعة ويحضرها لفيف من المثقفين والشباب وأخصهم بالذكر قسيس اهيف القامة - استاذ في اللاهوت - يظهر شحوب وجهه ، بالرداء الاسود الذي يلبسه ، يبتسم وجهه ابتسامة باردة تشاركها عينان رماديتان باردتان .

كان يتحدث عن الحقائق الموجودة داخل الاناجيل وعن
ازليتها ، بجمل قصيرة ومقطعة ، ولكنها ترن بقوة وتشير الى
اعتقاد خالص . ويجرك يمناه حين يتكلم بينما يسراه تبقى جامدة
في جيبه ، ويتكلم اثنان بهمس في احدى الزوايا :
— انه ممثل .

— .. نعم . ويحسن دوره تماماً .
لقد قرأت كتاباً عن نضال المذهب الكاثوليكي ضد العلم ،
واعتقد انه تأليف « درابر » وهذا الرجل يبدو وكأنه يشابههم ،
وتفكيره نحو الحب كالايمان الاعمى الذي من اجله يحصل التقتيل
والحرب .

كان يرتدي قميصاً ابيض ذا اكمام عريضة طويلة ، وفوق
القميص سترة رمادية ويتميز بهذه الالبسة عن الجماعة لغرابتها
وكان ينهي خطبته قائلاً :

— هذا ما اسألكم عليه . هل أنتم ممن يتبعون المسيح ام ممن
يتبعون داروين . ؟

يقذف هذا السؤال من فمه كأنه الحجر ، قد ضرب به الشباب
المستمعين ، فكنت تقرأ في أعينهم ، رجالاً ونساء ، الخوف منه
والانجذاب اليه وترى الرؤوس منحنية مفكرة دون أن يجابوه .
— إن الفريسيين « الحبشاء » وحدهم يستطيعون محاولة دمج
المبدأين معاً ، ويكذبون على أنفسهم بدون حياء كذلك ، فيضلون
الآخرين .

فانبرى معارضاً اياه ، وتقدم قليلاً وهو يرفع جلبابه قليلاً ،

وابتسم ابتسامة المتواضع عن اقواله كأنها الماء السلسل الجاري ولكنها محشوة بالثورة وقال :

— على ما يظهر انك تشاطر الرأي العام الخاطيء فيما يتعلق بالفريسيين وتأكد انك مخطيء تمام الخطأ في تفكيرك .

وواصل القسيس مناقشته على ان الفريسيين يُنظر اليهم كحراس التشريع اليهودي المخلصين وان الشعب قد اتبعهم في تعاليمهم ثم قال له :

— اقرأ مؤلفات « فلافيوس جوزيفوس » مثلاً .

عندما سمع الرجل هذه الكلمة قفز من مكانه واجابه مستنكراً :

— جوزيفوس ؟ .

— ان الشعب يتبع اعداءه في تعاليمه ، ويقويه العدو ضد صديقه وليست ارادة الشعوب بيدها ، انما هي انسياق مع التيار وأبعد جوزيفوس عني ! .. انه مؤرخ خاطيء .

انه يتكلم والمناقشون الآخرون يقسمون القضية مثنى وثلاث ورباع في ظنونهم الى ان قارب الحديث ان يتلاشى ، والرجل بقي متمسكاً برأيه والشرر يتطاير من عينيه كراهية ، ثم قال :

— الحقيقة ان الحب هو مرجع كل امر .

من هذه المناقشات استفدت كثيراً ، واحسست ان الارض تتمد من تحتي وعدت اعاود التفكير عن نفسي فأراها أسخف مما ظننت .

وبعد ان مسح الرجل عرقه المتصبب على وجنتيه ، عاد الى قوله :

— ارفعوا الأناجيل جانباً .. انسوا الأناجيل وبعدها لن

تكذبوا ابداً ، اصلبوا المسيح ثانية فهذا اوفق لكم .

كانت اقواله تنصب امام مسامعنا كالجدار الابيض العريض ،
لا ارى فيه منفذاً ، فتساءلت في نفسي كيف ذلك ؟ ان الحياة
نضال مستمر من اجل السعادة ، إذن فالحب والرافة قد خالفا
عقيدته ، واثبتا لي ان الحياة بالصراع . وعلمت اخيراً ان يسكن
وان اسمه « كلوبسكي » فذهبت لزيارته في الليلة الثانية ، فرأيت
في الحديقة الى جانب صاحبي الدار ، جالساً قرب طاولة تحت
شجرة ظليلة ، فامتثل لي بثوبه الابيض وقميصه المفتوح ليظهر
صدره الاسمر الغزير الشعر .

وكان منظره يتلاءم مع تفكيري بالرسول الذي لا مأوى له ،
ذلك المبشر بالحقيقة وهو يأكل التوت والحليب بملقعة فضية ،
من اداء امامه ، بمتعة ظاهرة ، وهو يتلمظ بشفتيه المستوخيتين وفي
كل آونة كان يمتص من شاربيه ما علق من ذرات الحليب يشابه
في ذلك شارب القط وقتما يلحق حليبه .

جلست احدي الاختين الى جانب الطاولة متأهبة لخدمته بينما
الثانية قد اتكأت على جذع الشجرة ، عاقدة ذراعيها الى صدرها ،
وسبحت عيناها بجلم حالم بين طيات السماء الحارة . كانت ثيابها متشابهة
يغلب عليها اللون الليلكي ، وكل واحدة منهما طبق الاصل عن
أختها ، ومن الصعب على الانسان ان يعرف ايها يريد من اول وهلة !
وحدثني عن قوة الحب الخلاقة بلطف وايناس ، وكيف يستطيع
المرء ان ينمي حباً من قلبه لانه القوة الوحيدة - على ما اعتقد -
التي تربط ارواح العالم بعضها ببعض . وكان يقول :

- هذا هو الرباط المقدس الذي يمكن ان يربط الانسان بأخيه

الانسان ، الحياة بلا حب فارغة المعنى ، واولئك الذين يعتقدون ان سر الحياة انما هو بالنضال ما هم إلا أرواح عمياء بصرأ وبصيرة . ان النار لا تطفأ بالنار ، والشر لا يقوى على الشر .

ثم عبرت البنتان الحديقة الى البيت ، ممسكة كل واحدة بنحصر اختها ، فنظر الرجل اليهما ، وكأنه مصور غارق في تصويره ، وسألني :

— من انت ؟ ..

وعندما اخبرته عن واقعي وحياتي ، عاد الى كلامه وهو يوقع لحناً على الطاولة بأنامله .. كيف يصبح الانسان انساناً كاملاً ، وكيف يجب عليه ألا يغير هدفه في الحياة ، وكيف عليه ان ينظم روحاً متعلقة بالحب الانساني :

— كلما كان الانسان من طبقة متواضعة ، ازداد تقرباً من الحياة ، ومن حكمتها القدسية .

لم أعارضه ابداً رغم اني كنت ألم بهذه الحكمة القدسية إماماً كافياً . وقد حاول ان يظهر الملل من جلستي فرماني بنظرة ثاقبة ناعسة وتشاءب ، ثم وضع كفيه خلف رقبته ، ومد ساقيه الى الامام ، وأسبل جفنيه متظاهراً بالتعب كأنه نصف نائم ، وتابع جملة الاخيرة :

— اطاعة الحب هي ناموس الحياة .

وفيما قذف بيديه جانباً وكأنه يقبض طيراً في الهواء ، وحملق بي وقال :

— ما هذا ؟ اعذرني ، اني اشعر بكلل مضم .

وأطبق جفنيه من جديد ، وكشّر عن أنيابه كأنه متألم ، فتدلت شفته السفلى ، بينما انقبضت العليا ، فبان شارباه كأنهما قنفذة قد علقت جانباً من وجهه . فتركته عائداً الى المخبز ، وأنا اشعر بالكرهية البغيضة نحوه ، وشاكّ بصدقه . وقد طلب مني استاذ في الجامعة ، وهو سكير عازب ان احضر له كهكاً كل صباح ، فقابلته هناك .

كان وجهه متنفخاً ، وجفونه حمراء كأنه لم ينام بعد ، وكان مثلاً ايضاً وكذلك الاستاذ الذي جلس بثيابه الداخلية على ارض الغرفة ، وهو ممسك بسيجار في يده ، والأثاث مبعثر والثياب ملقاة بين زجاجات الجمعة الفارغة ، تراه وهو يهتزمينة ويسرة ويقول :

- ال... رحمة .

فيجيبه كلوبسكي بحدة وغضب :

- ليس هناك رحمة . سنطيع الحب او نُسحق من اجله . وعلى الحاليتين نحن مقهورون امام الحب .

وأمسك بي من كتفي وقادني الى الاستاذ وقال له :

- أنظر اليه ، اسأله ماذا يريد ، اسأله ، أيجب الانسانية ؟ فرفع المعلم عينين مخضلتين بالدموع ، وان كانتا تضحكان وأجابني :

- اني مدين لهذا ببعض المال .. انه يعمل في المخبز .

ثم أخذ يفتش عن شيء في جيبه الى ان وجده ، واخرج مفتاح داره وقدمه لي قائلاً :

- خذ ما يحلو لك من داري .

ولكن الرجل العبقري اخذ المفتاح من يدي وأشار اليّ
باحترار طارداً إياي :

- اخرج من هنا حالاً ... ستحصل على ما لك في مرة
أخرى .

وقذف بالأرغفة التي أخذها مني على إحدى الأرائك دون
أن يعرفني ، وكم سررت من جهله بي . وعدت إلى عملي ، وحديثه
الماضي عن الحب يقتضب ويطول في ذاكرتي ، وقلبي يحتمل حبه
أشع احتقار .

وبعد مدة سمعت حدثاً جليلاً ، ذلك أنه أفضى سر حبه
للأختين ، ولكل واحدة على حدة - صاحبتا الدار المضاف فيها -
وعندما أسرعت أحدهما نحو شقيقتها لتبشرها بخطبتها من ذلك
الضيف ، صعقتا من هول الصدمة ... كيف حوّل سعادتهما إلى
مرارة وجفوة وبغض . فأرسلنا الخادم بالتو ليطرده من
غرفته ، ولكنه اختفى ، ليس فقط من ضيافتهما ، إنما من كل
المدينة .

إن قضية الحب والرأفة ، ومكانتهما في حياة الإنسان - وهما
قضيتان صعبتا الحل ، قد طرأتا على تفكيري ، وأنا في سني الفتي ،
شعوراً غريباً ، مفكك الانسجام الداخلي . وبعد أن أمعنت في
تفكيري عدت إلى سؤال بسيط وهو .. ما معنى الحب بشكله
الكامل ؟

جلّ ما قرأت كان مشبعاً بالتعاليم المسيحية والأفكار

وظيفة زوج دونكا هي ان يخبر سيده عما فعل فلان ، وماذا قال الآخر ، ذلك الحسيس النفس والناعم الملمس ، وكان المفضل عند ميدنيكوف من عماله ، وقد قال صدقاً عن هذا النوع من البشر .

هؤلاء الناعمو الملمس يعيشون على اكتاف الآخرين ، كالاعشاب المتسلقة على صخور متماسكة ، فتضعف شدتها ، وتصبح ضعيفة الممسك وكذلك هم . وعندما لاحظ اني عشت في نعومتهم ، أشعر كأنني حصان محاط بسرب من الذباب العالق به . كانت تتقاذفني هذه الافكار نفسها عندما غادرت بيت الشرطي في منتصف الليل حين كان الهواء يتلاعب في الشوارع فتتأرجح المصابيح وتقم السماء ، وما لبثت ان هطلت امطار تشرين الاول . أحسست ان روحي إنما تنناقص عن نفسي كل لحظة تناقصاً بيناً ، ليس فقط بالكلام او الفعل أو الشعور السيء ، إنما كنت مجذوباً من صميم روحي نحو النساء والكتب ، نحو العمال والطلاب ولكني لم أجد فسحة من الوقت أشبع فيها هذه الرغبات او رغبة واحدة على الاقل ، إذ أني ادور بلا وعي ودون ربح بضربات من أكف خفيفة .

- ٢٤ -

رجل عظيم

ذهبت لزيارة « ياكوف شابوشنيكوف » في المستشفى عندما علمت أنه نُقل اليه . ولم أدخل حتى قابلت امرأة سميننة الجسم

تلف شعرها بمنديل أبيض تظهر منه أذنان حمر او ان كبريتان
فأخبرتني دون اي اکتراث :

— لقد مات .

فسمّرتُ في مكاني صامتاً حزيناً ، ساداً عليها طريقها ،
فاغتاضت كثيراً وقالت :

— وماذا تريد بعد ذلك ؟

فنظرت اليها نظرة شزراء حقودة وقلت :

— يا لك من حمقاء لدودة !

— نيقولاي .. اطردها هذا الشاب من هنا .

كان هذا منهمكاً في تلميع بعض القضبان النحاسية ، فأسرع
وضربني على ظهري بأحدها فتوقد الشرابي وحملته بين ذراعي
ورميته أمام مدرج المستشفى فظل برهة في مكانه دون ان يتفوه
بحرف ، وما لبث أن لمّ شعته وهرب قائلاً :

— إخ .. ما أنت الا ابن .

وذهبت الى حديقة درزهافين وجلست على احد المقاعد الى
جانب نصب الشاعر هافين ، وشعرت برغبة حمقاء لان أقاتل
الناس كلهم بأن احاول ان أثير سخطهم جميعاً ، فيهمجوا علي
ليضربوني ، فتحنن فرصتي لألکم ما اريد ومن اريد ، فقط لاشفي
غليلي !

ولكن الحديقة اليوم والشوارع القريبة منها مهجورة فارغة
لا تجد احداً فيها ، لشدة الرياح الباردة التي تحمل معها ما تشاء من
الغبار ومن الاوراق الصفراء ، ثم اخذ الهواء يزداد وحالت السماء

الى لون رمادي قاتم .

رفعت بصري الى هذا التمثال البرونزي وقلت .. عاش هنا
رجل عظيم ... نعم قرب هذا المكان ، إنه ياكوف ، ذو الروح
المنعزلة ، والمحارب بالله بكل قوى عقله .. ومات ميتة بسيطة
عادية . وهذا الاحتمق نيقولاى .. بامكانه أن يقتلني او ينادي
الشرطة ويسجنني ايضاً . حقاً ، الاغبياء كثير في هذه الدنيا .

- ٢٥ -

الهجوم على الجامعة

كنت قاصداً الحياط روبرتوف فوجدته منحنيّاً على طاولته
في غرفته الصغيرة ، وهو يرفو ستروته تحت ضوء باهت . فقلت له :
- انعي لك ياكوف .

فجمدت الابرة في يده ، ورفع بصره نحوي مبدئياً اسفه . وكاد
يرسم علامة الصليب على صدره ولكنه قطع الحركة . وقذف
الراحل بشتيمة ، وقال :

- هه .. وما في ذلك من عجب ! كلنا سنموت . هذه سنة
الكون ، ولقد قبضت الشرطة ذلك الاحد على جارنا النحاس
الذي تعرفت عليه بواسطة بلتيموف ؛ شخص ماهر وصديق
الطلاب .. اسمعت ؟ ان الطلاب يحاولون ان يقوموا بعمل ...
اعذرني ، لا ارى هذا اليوم جيداً ، الا تسمح بأن تخطط لي هذه

الرقعة ؟ من الصعب التفكير في هذا الجو .

ووضع في حجري ستوته واعطاني الابرّة ، وراح يحوب ارض
الغرفة ، ويداه خلف ظهره وهو يدمدم في سعاله :

— اننا كالشعلة ، احياناً هنا واخرى هناك ، وفي النهاية يقفز
الشیطان علينا او ينفخ علينا فننطفئ . ونفس الرواية تتمثل من
جديد وبلا انقطاع . سأهجر هذه المدينة الضائعة التعيسة ، قبل ان
يحين وقت جمود الامواه ويتعسر السير على القوارب .
وتوقف برهة صامتاً وهو يحك صلعته ثم اردف :

— نعم ، الذهاب .. الى اين وقد جبت الففار والامصار ،
ولم يبق مكان على وجه البسيطة لم اعبره ؟ . حقاً انني شقيت في
ترحالي . الشقاء هو كل ما جنيته من دنياي هذه .
وبصق على الارض ثم اردف :

— لقد حققت اللعنة على الحياة .. عيش وعمل وانهاك قوى ،
ولا نربح شيئاً بعد الكد لا لروحنا ولا لجسمنا .

ووقف جانب الباب لبرهة قصيرة اطول من وقفته الاولى
لكأنه يصغي الى قولي من الشارع ثم اقترب مني على حين غرة وقال :
— هوذاك يا اليكسي مكسيميتش ، وما اقوله صحيحاً . لقد
اضاع يا كوف حياته بنكر ان الله العظيم . وماذا يستفيد الانسان
اذا انكر الله او القيصر مثلاً ؟ .. انما عليه ان يغضب من حياته
الواهية هذه ، ويصرخ واخوانه بصوت واحد وعال .. لا ! .
وهذا كل ما في من هذه الحياة .

آه يا اليكسي مكسيميتش ، اني رجل هرم ، وقد ولدني

امي بعد او اني وما كان عليها الا ان تلدني بعد اعوام . وسأصبح قريباً اعمى ، او كالحجر ، وهذا مؤسف حقاً . هل انتهت السترة؟ شكرأ لنذهب الى الحانة ، ونحتسي بعض الشاي .
قال لي حين كان يتعثر في طريقه وسط الظلام ، فيمسك بي ويستند إليّ :

— سجلّ كلمتي الخالدة هذه عندك .. « قارب الجمر البارود ، وسينفجر في اقرب فرصة ، ويسحق ما امامه . سيحقق الشعب كل هذه المطالب بعد حين . نعم لقد نفذ الصبر » .
لم نستطع بلوغ الحانة ذلك اليوم ، انما وصلنا الى جماعة من الملاحين النهريين المحاصرين لبيت الدعارة الذي كان يحويه عمال من مصنع آلا فوزوف . وقال روبرتوف ضاحكاً وهو ينزع نظارته مرافقاً لهذه المعركة :

— كلما يجري تعطيل في البلدة يحصل التقتيل هنا .
ولما عرف ان اصحابه بين العمال التحق بهم واخذ يشجع اصحابه بقوله :

— قاوموا يا ايها النساجون .. إسحقوا حتى الضفادع .. هيه !
من الغريب ان يشاهد المرء هذا الحماس في شخص هذا المسن الهزيل ، والاغرب كيفية صدّه الضربات المعادية ، او ضربه الاعداء بكتفه الايمن القوي .

ان رغبة الجمهور في هذا القتال هي للتفكه والمرح ، يحاولون فيه تغذية اجسادهم بالرياضة الحرة . وهجم الجنود هجمة شعواء على العمال فهزموهم الى الابواب ، حتى ان الالواح الخشبية قد

تصدّعت لكأنها تحتج على ما يحدث . وتسلق اثنان من العمال
سطح البيت وشرعا في الغناء :

« اننا لسنا لصوصاً ... »

« كما لسنا مخادعين ... »

« لم نقطع على الناس طرقهم

انما نحن صبية يرحون

نعم اننا نحن ملاحون »

فدوى في الفضاء صوت صفارة الشرطي ، وابتعت ازواره
الصفراء وسط الظلام ، وسمع وقع نعال قوية مسرعة . وواصلت
الاغنية نشيدها :

« نقذف كل مساء بشبا كنا

ونسحبها الى الساحل ملآنة »

« الى بيوت التجار الاغنياء المسنين

وإلى اقبيتهم .. وحظائرهم »

واخيراً القبي القبض علينا - انا وروبتوف - مع ستة
اشخاص لا نعرف اذا كانوا اصدقاء او اعداء . وفي طريقنا الى
النظارة سمعنا ترجيع الاغنية يصل إلينا مع الريح العاصف :

« إياه .. لقد حملت شبكتنا اربعين سمكة

اسود وبلطيتي ، وابيض ، وابراهيم »

فابتسم روبرتوف ابتسامة المنتصر . والدم يسيل من انفه
ومن فمه وقال :

- - الحمد لله ، ان شباب الفولغا لم يغلبوا يوماً .

ثم همس في أذني قائلاً :

— حاول ان تهرب من هذا المأزق .. ترقب الفرصة السانحة ،
لماذا أنت ذاهب معنا الى النظارة ؟

وعندما وصلنا الى منعطف شارع منحرف انطلقت أعدو
فيه ، فافتقى أثري بحار طويل ، وكان ان غبت عن نظريه وكان
هذا آخر عهد لي بصديقي نيكيتا روبتوف المحبوب .

انقلبت حياتي الى جحيم لا يُطاق ، وعظم اضطراب الطلاب ،
ولم أستطع ان أفهمه تمام الفهم ، أو ان أفهم معناه ، ولقد أخفقت
في فهم الصراع الحقيقي الكائن خلف مشاعري الذي يحمسي أشد
الحماسة للدراسة في الجامعة حتى ولو آلموني ، حتى ولو قيل لي :

« يمكنك الدراسة شرط ان تجلد كل صباح احد في ساحة
نيقولا بيفسكايا » لقبلت دون تردد . وحين اقتربت من مخبز
سيمينوف سمعت ضجة العمال المتعالية ، فاعتراني شوق غريب للذهاب
إليهم . كانوا يضعون خطة الهجوم على الجامعة وضرب الطلاب .
وقال احدهم بنجبت :

— سنأخذ معنا بعض الاثقال الحديدية .

أردت ان اناقشهم لأمنعهم عن فعلتهم الشريرة ، ولكنني كنت
— أنا نفسي — أشعر بالكرهية نحو الطلاب فكيف أقف الآن
بين هذا الحُضم الهائج لا ساعدهم ؟ ولم أدر سبب رغبتهم في ضرب
الطلاب ! ؟

فتركتهم وعبرت الشوارع قاصداً خفة كابان وجلست هناك
أرمي الحجارة في الماء ، وارقب إيقاعها في الماء العكر ، ومردداً
جملتي التي ظلت تطاردني حتى النهاية ، وماذا عساني ان افعل الآن ؟

كان رئيس الخبز يجيد العزف على الكمان فبدأت اتعلمها منه
لازجي فراغ ليلى ولازعج بموسيقى الحارس والفئران . وقد
تعلقت بالموسيقى وشغفت بها . ولكن في احدى الليالي صدف ان
غادرت الخبز لبرهة قصيرة حين كان يعلمنى رئيسي العزف عل
الكمان دون ان أغلق علبة المال ، وحين عدت وجدته وهو
يحشو المال في جيبه . وعندما شاهدني اقترب مني بلا وعي ومد
لي خديه وقال بهدوء مميت :

— حسناً ، اضربني . أنا طوع امرك .

كانت شفتاه ترتجفان ، ودموعه الساخنة المتلاحقة تنهار من
مآقيها الغارقتين في بحر من الدمع ، فحاولت ان اضربه ، ولكني
حسبت للموقف ألف حساب ، فجلست على الارض ، وأسبلت
قبضتي ، وقلت له بصوت خافت خائف ان يفرغ كل ما أخذه ،
وكذلك فعل . ثم اتجه الى الباب طالباً الهرب ، ولكنه توقف ،
وقال :

— أرجوك ان تعطيني عشر روبلات .

فأعطيته ما أراد ، وخرج ولم يعد وقد كففت بعدها عن
تعلم الموسيقى .

— ٢٦ —

الانتصار على الذات

حاولت ان انتحز في شهر كانون الاول . وكتبت على هذا
الحادث قصة اسميتها « حادث في حياة ما كار » عن حادثي لهذا

الجرم الذي لم أوفق به . ليست قصة جميلة بل فارغة من حقيقة الوجود ، ومع ذلك سأسرد لك القصة كلها ، وهي ضعيفة من كل نواحيها ما عدا موقف واحد هو الانتصار على الذات .

اشتريت مسدساً يحوي اربع طلقات من السوق ، فافترغت واحدة منه بصدري آملاً ان اصيب القلب ، ولكنني اخطأت الهدف فاخترقت الرصاصة رئتي ، وبقيت صريع الفراش أشهراً . وبعد ان بدأت اشعر وادرك أحسست بنجولي الطاعني ، وعدت الى مخبزي لأعمل به عملي .

وفما كنت عائداً في احدى الامسيات الى المخبز في اواخر شهر آذار وجدت خوخول بجانب النافذة خلف الحانوت ، كان يدخن سيجارة خفيفة ويحلمق مفكراً في سحاب الدخان المحيط به ، وسألني دون تحية :

- أديك بعض الوقت الفارغ ؟

- عشرون دقيقة فقط .

- إذن اجلس هنا . اريد ان احادثك في امر ذي بال .

كانت ستورته - كالعادة - واصله الى ذقنه ، ولحيته منتشرة على صدره ، وشعره هابطاً على جبينه بعناد ، وكان لابساً حذاء فلاح ثقيل ، وبدأ حديثه بهدوء :

- والآن أتحب ان تذهب معي لتعمل في حانوتي ؟ اني اقيم في قرية كراز نوفيدوفو التي تقارب الاربعين فرسخاً على الفولغا . ستساعدني في حانوتي هناك ، ولن يكلفك ذلك الكثير من العمل ، وعندني مكتبة حسنة ، وبإمكانني تقديم ما فيها لك لمطالعتها .

أموافق انت ؟ ..

فأجبتّه وانا انظر الى تقاطيع وجهه :

- نعم موافق ...

- اذن كن في تمام السادسة من صباح الجمعة على رصيف كورباتوف ، وسلّ عن الجندول الذي يقلّنا الى القرية وانتظرنى هناك . وصاحبه فاسيلي يانكوف .. طابت ليلتك ..

وفيا هو ينهض ليودعني سحب ساعته الفضية من جيبه وقال :
- لقد استهلك حديثنا ست دقائق من العشرين . ها ، إن

اسمي روماس ميخائيلو انطونوفيتش ..

ثم غادرني ، دون ان يلتفت إلي ، بمشيئة تدل على القوة والرشاقة رغم هيكله الهائل المتين . وبعد يومين - اي يوم الجمعة - انطلقت الى المكان الذي تواعدنا على اللقاء فيه .

- ٢٧ -

الحياة هي المنحطة ..

أخذت كتل الثلج الطافية على سطح الفولغا ، تسير متلوية مع الجرى المليء بالأتربة ، وتقترب في سيرها من قاربنا وترتطم به ، فتتحطم على جوانبه بشكل بلور لامع . وكان الهواء البارد يسوق الامواج ليكسرها على الشاطيء ، وتنعكس اشعة الشمس على الكتلة الثلجية ، فتبدو كأن سماءً بنجومها رُكبت فيها .

وجندولنا يسير سيراً متواصلاً تحت اشعة الشمس البراقة .
كان بانكوف يدير دفقة السفينة .. انه فلاح فتي ، يرتدي
ألبنسة انيقة ، وسترة مصنوعة من جلد الغنم المدبوغ ، محلاة بجبال
ملونة . وجهه هاديء وعيناه باردتان ، ولا تظهر على شكله هيئة
الفلاحين . ويشاركه العمل كو كوشكين - صغير الجسم يرتدي
سترة ممزقة مربوطة بجبل عتيق من وسطها على خصره . وكان هذا
يكلم قطع الثلج وهو يدفع الجندول برمح الطويل الذي يغرز في
قرار النهر ، قائلاً :

— ابعدني عن طريقنا ايتها الملعونة . الى اين تظنين نفسك
ذاهبة ؟

قال لي روماس حين كنا جالسين على الصناديق المقدسة :
— ان الفلاحين لا يحبونني هناك ، وأخصهم بالذكر من وسعت
أحوالهم . وبكل تأكيد ستشاطرنني الاحزان والاتراح هناك .
عندما سمع كو كوشكين هذا الكلام أدار وجهه الهاديء
نحونا وقال بشيء من العنجهية :

— انه القسيس فقط الذي يكرهك يا انطونيتش .

— نعم هو ذاك يا صاحبي .

— انك كالشجى في حنجرتك .

ثم واصل خو خول كلامه قائلاً :

— ولكن لدي عدداً من الاصحاب ، وسيصبحون اصدقاءك

ايضاً ..

كانت شمس آذار توصل اليها اشعتها الدافئة ، واخذت

الأشجار العارية تتمايل على ضفتي النهر . وترى الثلوج متراكمة
بين الشقوق الصخرية او تحت ظلال بعض الاشجار المصفوفة على
الشاطيء .. فألحظ نفسي كأني في حلم جميل عذب رقيق .
وحشا كو كوشكين غليونه بالطباق ، وواصل كلامه كأنه
الفيلسوف قائلاً :

- انك لست بزوجة القسيس حتى يخاف عليك ، ولكن هذا
واجبه . أليس كذلك ؟ .. انت تحب كل المخلوقات حسب الطريقة
المدفونة بالكتب .

- من الذي جعل وجهك بهذا الشكل ؟
- لا ادري ، بعض اللصوص قد فعلوا ذلك بي .
ثم أضاف قائلاً بشيء من التكبر :
- ان رجال المدفعية قد ضربوني . ها .. ولا اعلم كيف
نجوت منهم ؟ ..
فسأله بانكوف :

- ماذا جعلهم يفعلون بك هكذا ؟ أهنالك من سبب ؟
- أية حادثة تعني ؟ حادثة البارحة أم حادثة رجال المدفعية ؟
- البارحة .
- أيستطيع المرء في مثل تلك الآونة ان يفقه العدو الذي
هجم عليه ؟ اني لأشبههم بالحيوانات . لا يستعملون قبضاتهم إلا
لأتفه الامور .
فقال روماس :

- أعتقد انهم انما ضربوك لتهديب لسانك . انك لا تعلم معنى

الحذر ، وان كنت تطلب من هذه الحيوانات ان تنال قسطاً منه .
- ربما يكون ذلك ، والحقيقة انها عادتي قد اعتدت عليها ولا
أحيد عنها . اريد ان استفسر عن كل امر ، وسأسأل الناس لأعلم
كل جديد ، وان سبب لي ذلك القتل .

وفما نحن في الكلام اذ اصطدم حيزوم السفينة بكلمة ثلج
كبيرة وكذلك جانبها الايمن ، فأسرع كوكوشكين الى عمله ،
بينما كان بانكوف يوبخه :

- خلّ عملك نصب عينيك يا ستيبان .

فأجابه دون ان ينظر اليه :

- إذن لا تدفعوني الى الكلام . اني لا استطيع القيام بعملين
في آن واحد .

واخذ الاثنان يتراشقان بسباب ضاحك وكلام ساخر ، ثم
التفت روماس إليّ وقال :

- ان التربة هنا اسوأ من تربة موطني او كرانيا . ولكن
طباع اهل بلدي واخلاقهم احسن بكثير وهم ماهرون وذوو
مواهب قوية .

أصغيت الى حديثه المنسجم البسيط بكل انتباه وشعرت انه
ذو علم واسع وانه عصامي محبوب ، عرف كيف يفهم اخوانه ،
وانه لمن المبهم جداً انه لم يكن يسألني عن سبب محاولة انتحاري
ولو ان شخصاً مكانه لسألني هذا السؤال في اقرب حين ، والشيطان
وحده يعلم كيف اني حاولت ان اقتل نفسي .

اخذت الشمس تسطع بنور مشرق من ثنايا الفولغا ، ذلك

النهر الهاديء البعيد ، فتوسله بلون يشابه صداً الفولاذ . ومع ان
اطرافى كانت باردة فان روحى فرحة تماماً لهذا الجو الربيعى
الملائكى ..

وصلنا القرية قبيل الظهيرة . وأول ما بان لنا من القرية قبة
الكنيسة الزرقاء ثم تلتها في الظهور دور الفلاحين المبنية بنـاء
حديثاً . فى الحقيقة كان المنظر سحرأ للعيون ، ومسرة للقلوب .
لقد سبق ومررت بهذه القرية على قوارب بخارية ، ولكن
هذه المرة أحلى واجمل . ثم أنزلنا الأمتعة ، وكان روماس يناولنى
الأكياس ويقول :

- انك قوى بكل تأكيد .

ثم نظر الى الكيس الذى يحمله بين يديه ، وقال بصوت مرهف :
- ألم تعد تشعر بألم فى صدرك ؟
- .. كلا مطلقاً

سررت من كيفية سؤاله الماهرة هذه لأنى لم أحب أن يعلم
الفلاحين محاولة انتحارى ابدأ . فقال كو كوشكين بشيء من
الثروة :

- يا لك من قوى .. لست بحاجة الى كل هذه القوة فى عمـلك
ابدأ . من اى البلاد انت أيها الشاب ؟ أمن « نيجنى او فقورود »
وتقدم فلاح طويل القامة ، وهو لابس ألبسة قطنية له حـية
مجمدة وشعر زهرى وعندما وصل الضفة قال بهدوء وابتسامته على
ثغره المنفرج :

- اهلاً وسهلاً بكم .

ثم ألقى نظرة نحو عملنا ، وبسرعة مد خشباً عريضاً من الشاطئ الى السفينة ، وقفز اليها وقال :

- استعدوا للبراميل . وأنت أيها الشاب تقدم وساعدني .

كان كثير الاناقة ، قوياً جداً ، ذا عينين زرقاوين لامعتين ، ووجنتين قاسيتين ، وأنف كالتفاحة . وقال له روماس :

- انتبه من لفحة البرد يا إيزوت ..

- من ؟ أنا ! .. لا بأس علي .

ودحرج برميلاً من الكيروزين (كاز) الى الشاطئ ، ونظر

الى إيزوت وقال :

- أجب لي عمل في حانوتك هذا الشاب ؟

ثم اقترح كوكوشكين - مازحاً - قائلاً له :

- حاول أن تتصارع معه يا إيزوت .

- ها ، إني أرى على وجهك آثاراً لضربات جديدة قاسية ،

يا لك من أحمق . اضربك احد من البشر ؟

- اي بشر تقصد ؟

- الذين هشموا لك انفك .

فالتفت إيزوت الى روماس وقال :

- ستصل العربات توّاً ، إذ اني شاهدتكم عن بعد وانتم وسط

النهر . إذهب الى بيتك يا أنطونيتش وسأعتني بالطرد بنفسي .

كان اتجأه نحو روماس اتجأه صديق غيور يحب ان يحميهِ من

عوادي الحياة . ودخلنا بيتاً حديث البنيان تفوح من جدرانهِ

روائح الخشب الرطب ، الجديد التركيب ، ثم توسطنا غرفة

مرتبة نظيفة ، ولحمت فيها امرأة في زي أهل القرية ، تتحرك
بنشاط واعتداد ، حاملة سباط العشاء بعينين حادتين . أما خو خول
فانه انهمك في اخراج كتب من حقيبة مفتوحة امامه ليوتبها في
المكتبة . وقال لي :

- ان غرفتك في أعلى البيت « في المنطرة » .

وتوقفت أمام منظر القرية البائن أمامي من نافذة غرفتي ، وأمام
البيت فسحة واسعة تحتلها الأشجار الفارعة . ولحمت عن بعد قباب
الحمّامات هنا وهناك . وخلف الفسحة تمتد الرياض البضرة ، ثم
الحقول البعيدة المدى حتى خط الأحرار عند الأفق . وعلى قبة
أقرب حمّام مني رأيت فلاحاً مكوراً نفسه ومحملاًقاً بنهر الفولغا ،
من تحت كفه الذي يمنع به حر الشمس ويجلب الفيء .

سمعت جمجمة عربية تجرّها بقرة صهباء ، وامرأة هرمة مرتدية
ثياباً سوداء تركض في البوابة وتقول لولديها بصوت حاد :
- عليكم اللعنة .

والكنهها هرباً منها بأسرع ما يمكنها العدو . أية حياة تنتظرني
وسط هذا المملأ الجاهل !.. ثم دعيت الى العشاء ، فنزلت لارى
ايزوت يحادث روماس متمدداً الى الامام دون حذاء ، والبرد
يأكل قدميه ولكنه توقف حين دخلت . فسأله روماس :
- أكمل .. وماذا حدث بعد ذلك ؟

- هذا كل ما هنالك ، لذا فقد قررنا ان نعمل بأنفسنا وليكن
مسدسك معك في كل آن أو عصاً قوية تحرس نفسك بها . ولا
تكثّر من الكلام مع بارينوف لأنه وكو كوشكين كالمرأة لا

يضبطان نفسيهما عن اي امر .

.. لا ..

واخذ روماس يتكلم عن ضرورة تنسيق الفلاحين الصغار لتحريرهم من مخالف التجار المستثمرين ، وكان ايزوت يصغى الى أقواله بانتباه زائد . فقال بعد ان اتم روماس كلامه :
- وهكذا لن يترك ذوو البطون المليئة لك مستقراً تهدأ فيه ، وتركن اليه .

- ستري اني لا اهاب الايام .

- لا أريد الا ان انبهك فقط يا صديقي .

كنت اراقب ايزوت وافكر انه حتماً يشابه « كارونين وزلا توفر اتسكي » او يجب ان يكون واحداً منهما ، يأخذون قصص الشعب ليقدموها له مهضومة باتقان دون ان يزيدوا شيئاً من عندهم .. ان باستطاعتي هنا ان أعمل يداً بيد مع رجال اذا قالوا فعلوا . وعندما انهى طعامه قال :

- لا تجعل الامور تنجز جزافاً وكيفما اتفق يا ميخائيلو انطونوفيتش . عليك ان تسير بخطى متسدة . وبعد أن غادرنا ايزوت قال روماس :

- انه رجل شريف وماهر ، ولكن لسوء الحظ أممي يجهل القراءة إلا قليلاً . ويمكنك ان تساعد في تعلم مباديء اللغة .
مضى من الليل ثلثاه ، ونحن نطبق اسعار السلع الموجودة في الحانوت .. وقال لي :

- اني أبيع بسعر ازهد من اسعار البائعين المجاورين لي ، لهذا

فهما يبغضاني ، ويرغبان بي الشر . ولكنني لست هنا ، في هذه القرية ، للبيع والشراء أو طمعاً بربح أنتفع به . إنما أنا وحنوتي ، كأندريه وحنوته .

فأجبتة مصداقاً قوله :

— حقاً ، ولقد شعرت بشيء مثل هذا منذ اللحظة الاولى .

— ألم تر ان الشعب تواق الى اكتساب العلم بأية حيلة ؟

ثم أغلقنا الحانوت — من الداخل — ودخلنا ، وقبل ان نعبّر

اندار سمعت خبط نعال حذرة الخطوات ، فقال لي :

— انتبه ، أسمع ؟ .. هذا هو ميكان — رجل لا يملك لا

اهلاً ولا سهلاً ، حيوان دنيء وخبيث يحب الشر ويهواه كما تحب

الحوراء الجميلة المغازلة . فكن حذراً منه ومن غيره ايضاً .

وعدنا بعدها الى غرفة الجلوس واشعل سيجارته ، واخذ

الدخان يتطاير من بين شفثيه السمر اوين ، وهو يتكلم كلمات

واضحة متزنة ، مخبراً ايائي انه قد لاحظ علي منذ اوائل شبائي

كيف اني أبعثر زمني . ثم اضاف قائلاً :

— انك ماهر ، وعلى العمل مثابر . وأهدافك محمودة تمام الحمد .

وكل ما تحتاج اليه الآن هو الدراسة فقط لينمو عقلك ويبرز

تفكيرك . لست أعني بالدراسة الجلوس بين رزم الكتب وانت

بعيد كل البعد عن الشعب المحيط بك ، إنما هذا الشعب هو قسم ثان

من دراساتك ، وقد قال حكيم ، وقوله حق « جَنُني ' العلم

نوعان : علم تأخذه من الكتب ، وآخر تستنبطه من الشعب . ان

التعليم الثاني قاس بعض الشيء ولكنك لن تنساه ابداً » .

ثم غير افكاره في حديثه الثاني ، عن أهم امر وهو ايقاظ
الفلاحين ، ثم قال :

- يتحدث طلاب المدن عن الشعب ، ولكن هذا لن يجدي
فتيلاً .

ثم نهض وأخذ يذرع ارض الغرفة وهو يقول :
- الحب يعني التغاضي ، التسامح ، المغفرة . وجميل جداً ان
نحب امرأة ، ولكن الشعب أيمكننا التغاضي عن جهله ، او ان
نسامح هفواته ، او ان نوافق على دناءة شروره ؟ أمكن ؟ قل لي
أمكن ؟ ..

- .. لا !

- ها نحن الآن . ان كل صحبك في المدينة يطالعون مؤلفات
نيكروسوف ويتغنون بأقواله ولكنهم لن يحنوا افادة منه
ويجب ان نفيد الفلاحين وننبههم إلى ما يجب ان يعلموه . اسمع
قولاً لنيكروسوف :

« لست بالشخص المنحط ولكن الحياة التي تعيشها هي المنحطة .
انك لا تعرف كيف يجب ان تنهض حتى تجعل حياتك هنيئة
مسرورة ، او افضل - بكل صراحة - من عيش الحيوان البهيم .
يبحث هذا الحيوان عن ضرورياته أكثر مما تبحث انت ، انه
يدافع عن نفسه أكثر مما تدافع انت . كل النبلاء ورجال الدين
والاساتذة ، وحتى القياصرة كانوا فلاحين عاملين في الماضي ،
أنعلمون ذلك ؟ أدريتم ما اعنيه ؟ إذن عليكم ان تعيشوا بعزة نفس
لا ان توطأوا بمناسم غيركم » .

ثم سكت ولم يتكلم وطلب من الطاهية ان توقد المدفأة ،
وعاد بعدها يعرض عليّ مكتبته ، ومعظمها يتعلق بعلم واحد او
اكثر ، فكننت أجد مؤلفات لـ « باكل ، لایل ، ليكي ، لابوك ،
تایلور ، ميل ، سبنسر ، داروين . ومؤلفات اخرى روسية
لـ بيزاريف ، دوبرو ، ليوبوث ، تشيرني تشيفسكي ، بوشكين ،
كونكاروف نيكروسوف .

كان كفه الواسع يسدّ دفني الكتاب ، كأن شخصاً يسمح على
هرة صغيرة . ثم همس بلطافة قائلاً :

- كل هذه الكتب قيمة ، ويقولون انها نادرة . وقد أمرت
السلطات بأن يحرق اكثرها واذا أردت ان تفهم حكومتك حق
الفهم ، اقرأ هذا ..

واعطاني كتاب « ليفيائان » تأليف هوبز . ثم أكمل كلامه ...
وقدم لي كتاب الأمير تأليف ميكيا فيلي الناقد المرح .

- ٢٨ -

حديث الثورة

وفيما كنا نتناول طعام العشاء أخبرني باختصار عما يتعلّق
بنفسه وحياته :

- إني ابن حداد يدعى « شيرنيكوف » وقد عملت في سكة
الحديد لمحنة كييف ، واتصلت بالثوار ، وأسست مع جماعة من

زملائي في السكة جمعية للدراسة . ثم أوقفتُ ونفيتُ الى مقاطعة
ياكوتسك لمدة عشر سنين .

وبعد قليل من الصمت أردف :

- وقد ظننت في اول الامر ان الحياة في ياكوت خاتمة مطافي ،
وان الشتاء الفظيع هنا يجمد أدمغة البشر ، وعلى كلٍ فلا تلزم
العقول هنا . وبعد أن اكتشفت وجود بعض الروس في
الاكواخ المتناثرة والقريبة منا ، أحسست ببعض الراحة ، وابتعدت
عن نفسي السأم والوحدة .

كان جماعة الروس هناك من الشباب الممتازين . واحددهم
طالب جامعي يدعى « فلاديمير كورولينكو » وقد كنا صديقين
حميمين ، وبعد ان انتهت مدة نفقي ونفيه افترقنا ، ذلك لان
الصديقين المتشابهين في وجهة حياتهما واهدافهما لا بد وان يفترقا
يوماً . وهو عنيد مندفع ، ماهر في اي عمل يشتغل فيه ، حتى انه
رسم بعض الايقونات - ولم أحب ذلك منه - وسمعت انه يكتب
بعض المقالات لبعض المجلات الادبية بأسلوب رشيق قوي .

تحدث روماس في تلك الأمسية حتى منتصف الليل دون ان
يتوقف ثانية ، ويريد في ذلك اثبات عزمي في صميم نفسي ، محاولاً
إفهامي أن باستطاعتي ان أعيش معه . لم أندوق قط متعة من متع
الدنيا غير هذه الصداقة الجديدة ، حتى ولا نجاتي من الانحرار .
فأخذت أحترق نفسي احتقاراً زائداً ، وفكرت اني شخص لا فائدة
منه وقد شعرت بجريمة حياتي السخيفة هذه . وهذا الشخص قد علم
ما في طويّة ذاتي ففتحها بكل بساطة . وبكل ذوق أعاد لي

توازي وثباتي .. يالها من ليلة لا تنسى .. وكيف أنساها وقد
شعرت الشعور الهيباب فيها .

- ٢٩ -

حرية الفلاح

فتحنا باب الحانوت يوم الاحد للتجارة بعد انتهائنا من القداس .
ولم يمض كثير وقت حتى تكأ كأ الشعب حولنا . وأولهم كان
« مادفي بارينوف » القذر الثياب والبشع الهيئة وذو الذراعين
الطويلتين حتى لتحسبه أحد رجال الغاب المجهولين وإذا تطلعت
إلى عينيه وجدتها تحاكيان عيني امرأة لطيفة . وتقدم من روماس
وقال له بعد ان حيّاه :

- ما أخبارك في المدينة ؟

ودون ان ينتظر الجواب التفت إلى كوكوشكين وقال له :
- عادت قططك يا ستبان وقتلت ديكاً آخر .

ثم يغير الحديث ويخبرنا عن الحاكم وقد غادر قازان متجهاً إلى
بطر سبرج ليقابل القيصر ويطلب منه ان يأمر التتار بأن 'يخجلوا'
القوقاز والتركستان . وأخذ يمدح الحاكم :

- ياله من شخصية فذة ! .. الأمر العظيم فيه هو أنه يدري
ما يتطلب منه واجبه .

فأجابه روماس بهدوء :

- انك تختلق كل قولك .

- .. أنا ؟

- لا أعرف .

- انك لا تصدق انسيّاً يا أنطونيتش .

فقال بارينوف وهو يهز رأسه بعباب :

- أنا ؟ اني آسف للتتار ، ولكن بلاد القوقاز تتطلب أناساً

يعرفون العيش فيها .

وتقدم من بين الجمع شاب تعب ، قصير القامة نحيلها في ثوب خلق وعريض لكانه ثوب غيره ، وله عاهة في وجهه غيرت كل ملامحه ، وجعلت فيه بحالة ابتسام مريضة وعينه اليسرى تغمز المرء تباعاً ، ويتبعها في عملها الحاجب . وأكمل بارينوف مستهزئاً :

- ها هو ميكان .. ماذا سرقت الليلة الفائتة ؟

فأجابه بصوت واضح رنّان لكانه الجراس :

- سرقت مالك .

ورفع يده الى قبعته يحمي بها روماس . ثم جاء بانكوف ، جارنا وصاحب دارنا مرتدياً سترة عصرية مدنية ، وعاقداً منديلاً أحمر حول عنقه ، وتجتاز صدره سلسلة فضية . فتفحص ميكان بحدة من أسفل الى أعلى وقال له :

- سألصق عصاي وسط ظهرك إن اقتربت من بستانى مرة

ثانية يا أيها الشيطان العجوز .

فأجابه ميكان بكل هدوء :

- نفس الكلام دوماً !..

ثم اضاف متنهداً :

- لا جدوى لك إلا اذا حطمت جمجمة الانسان .

فاخذ بانكوف يصرخ بحدة ولكن الشيطان واصل كلامه :
- ومن يقول اني عجوز ؟ اني لم اتجاوز السادسة والاربعين

بعد !

فصرخ بانكوف :

- لقد قلت في عيد الميلاد الماضي إن عمرك ثلاثة وخمسون
عاماً ! لم الكذب ؟

فتقدم سوزلوف ؛ رجل ذو لحية موقرة ، وتلاه صياد سمك ،
ثم أتى بعدهما عدد من الاشخاص يقاربون العشرة . وجلس
خوخول الى جانب الحانوت يدخن غليونه ، ومستمعاً
بكل هدوء الى الفلاحين الذين جلسوا حولي . وكنت انتظر
جاهداً كيف سيحبب خوخول عندما يفتح ثغرات سهلة الانطلاق
في الحديث ، ولكنه يصمت ولا يجيب ، اذ كان جامداً كالتمثال
متتبعاً الحديث بهدوء .

ثم تقدم رجل سكران من الشارع يلوح بذراعيه كرحى
الطاحون ، وتنطوي ساقاه بشكل منفرج تارة وملتصق أخرى .
كان حديث الفلاحين مقبلاً ومملأ ، وكذلك شعرت ببعض
الحمول ينالني من هذا الجو السقيم البارد الذي يهدد بظرق مطير .
وأخذ عقلي يعيد عليّ ذكريات المدينة الضائعة بأضوائها المختلفة ،
ومرور الاشخاص في شوارعها المزدحمة ، والمناقشات المثيرة في
الغرفة تتلاطم مع صدى اسماعي .

حينما كنا نختسي الشاي مساء سألت خو خول عن أي وقت
سيبدأ في حديثه مع الفلاحين فاجاب :

- أتحدث ؟ .. وعن أي شيء تريدني ان أتحدث ؟

وبعد ان شرحت له فكرة الوطنية والحرية ، وسمعت
حديثي بكثير من الانتباه وقال :

- ها ها ، لقد فهمت . ولكن اذا تحدثت اليهم عن اشياء

كـهـذه وفي الشارع أيضا ، فسأرسل - لا محالة - لاقم في المنفى .

وملاً غليونه بالطباق وأشعله ، وأخذ يمتص منه ، وينفخ من

فيه حتى احاط نفسه بجو اغبر من الدخان .. ثم عاد الى حديثه بهدوء :

- ان الفلاح حذر ، ولا يؤمن ولا حتى بنفسه ولا - طبعاً -

بجيرانه . ويخشى أي رجل غريب إذ لم يمض ثلاثون عاماً على

نيله حريته . كل فلاح في سن الاربعين كان فقيراً في صغره ولا

يزال يتذكر حالته الاولى ولا تعني هذه الحرية الاسمية ، التي

حصل عليها ، له شيئاً ، ومن الصعب عليه ان يفهمها . ومعنى

الحرية هو سهولة العيش الرغيد ، ولكنك اذا ما تحررت قيد

أثملة ، لا بد وان تصطدم بموظفي القيصر .

- ٣٠ -

استبداد القيصر

كان البرد قارساً ، والغيوم تتراقص عبر السماء الزرقاء فتحجب

الشمس حيناً وترسلها حيناً آخر ، فتتناثر بقع الظل هناك كأن

الجو نخل يتلاعب أمام عينيك . وغدت البنات العذارى مرحات
بالبسمة الآحاد ، هائمات بهواة وسط الشارع ، راميات بأسراع
أقداماً ظريفة ، كاشفات بلطافة عن احذية من الجلد القاسي اللماع .
ويركض الصبية وراءهن وهم يحملون عصياً للصيد على
اكتافهم .

والفلاحون المتهادون ببطء أمامننا ينظرون الى جمعنا بأطراف
أعينهم . ثم يرفعون أصابعهم إلى قبعاتهم للسلام ويتابعون طريقهم .
وشرع ميكان و كو كوشكين في مناقشة ودية عن قوة ساعد
التجار وأصحاب الاطيان وقد دافع ميكان عن اصحاب الاراضي
و كو كوشكين عن التجار :

- إن جد فينكيروف حمل نابليون من قذاله . ويستطيع
فينكيروف نفسه ان يحمل اثنين من بنيتاتهما ، ويلوحهما في الهواء .
فوافق كو كوشكين قائلاً :

- كفى كفى ، ولكن على كل حال التاجر يأكل أكثر من
صاحب الأطيان .

فأضاف الرجل المسن الجميل الهيئة بقوله :

- لقد فقد الفلاحون نقطة ارتكازهم يا ميخائيلو أنطونوفيتش
أيام النبلاء ، إذ منعوهم من العمل الجد ، والعمل كان كثيراً .
فأجابه ايزوت ساخراً :

- لماذا لا تقدم عريضة بحق الاقطاعية ؟

فنظر اليه روماس ، وأخذ يطرق غليونه على الحائط .

وانتظرت به بفارغ الصبر حتى يتكلم .. ولكنه لم 'يجر جواباً ،
وانصت لحديث الفلاحين المفكك الاجزاء .

بالحقيقة ، أصل التغيير كان على يد القيصر ، إذ هو الذي انتزع
الفلاحين من أيدي الاقطاعيين . ويريد في ذلك إحداث اقطاعية
واحدة تحت إمرته ، يتحكم بها كما يشاء ويرغب . ولا بد ان يحين
يوم - غير متوقع - عند ما يرغم القيصر على شرح هذه الحرية
مع ان الفلاحين يثقون به الثقة العمياء ، وهو السيد الوحيد
لأرضهم .

انتزع القيصر الفلاحين من الاقطاعيين ، وبامكانه ان ينتزع
السفن والحوانيت من التجار . إن الفلاح من حزب القيصر الآن .
ويفكر بأن تعدد أسياد الارض يجلب الغلبة عليها ، ولكن وجود
سيد واحد في الارض يساعدها وينمّيها . ولا بد ان يجيء يوم
ويشرح فيه القيصر معنى الحرية .. !

يعيش كل فرد بخوف وجزع ، وهو منتظر ذلك اليوم
السعيد . فالفلاح يريد الكثير وبامكانه أخذه ، ذلك لان
كثيرهم كثير عند القيصر . ولكن بأية وسيلة يمكنه اخذ هذا
الكثير .. ! واني ذهبت وجدت الموظفين أعداء للفلاح . نعم ،
وبكل صراحة هم انفسهم أعداء للقيصر . ومع ذلك لا يمكنك
استفتاء الفلاحين عن رأيهم ، حتى ولا يوجد واحد منهم خبير
بأفكار يستحق هذا الاستفتاء .

طلقة قبل منتصف الليل

كان الهواء يقذف بالامطار على نوافذ المنازل بشدة ، والضباب الرمادي قد ملأ الجو ظلاماً ، وكذلك اقتحم قلبي فأهاجه وضيقه .
وعاد صاحب الصوت الهاديء يواصل كلامه :

- دع الفلاح يدرك ان من واجبه اخذ السلطة من القيصر .
يجب ان تعلمه ان من حق الشعب اختيار موظفيه ، ورئيس شرطته وحاكمه وحتى قيصره .

- ولكن هذا يستغرق قرناً كاملاً .

فأجاب هازئاً :

- أو كنت تظن ان ذلك يحدث يوم الاحد بعد عيد الثالث

المقدس ؟

سمعت طلقة نارية عندما دقت الساعة الحادية عشرة بالقرب من دارنا ، وقد كنت وحيداً فأسرعت لمكان الصوت رغم المطر والظلام ، فوجدت ميخائيل انطونوفيتش متقدماً من البوابة ، وكأنه تمثال من رخام جامد ، يسير ببطء وحذر متجنباً السواقي المائية التي كانت تمر من تحت قدميه ، فلما رأياني قال :

- ماذا اخرجك من المنزل ؟ الطلقة ؟ .. انما اطلقتها .

فسألته بكلمة صامته خرجت من شفتين جامدتين :

- ماذا حدث ؟

- لا شيء بالمرّة .. حاول بعض الاشخاص مهاجمتي ، فاطلقت
رصاصة في الهواء فهرب الجميع .. أتعتقد اني آذيت الهواء ؟
وحين دخلنا الغرفة خلع ما عليه من الثياب المبللة ، ونظف
ذقنه من قطرات المطر ، وصار يهز رأسه ؛ ويخرج من انفه
صوتاً يشبه صهيل الخيل بعد ان يشرب ..

- كأن هذا الخدء اللعين حفرة مليئة بالماء ... يجب ان اغير
ثيابي .. أيمكنك تنظيف المسدس ؟ .. أرجوك الاسراع قبل ان
يعلموه الصدا ، أغسله بالكاز ان أحببت ..

كم كنت أعجب من هدوئه الشامل ، ومن عناده اللطيف
الذي تقرأه على محياه ، ثم اخذ يرجل شعره امام المرأة ، وهو
يقول :

- احذر على نفسك في المساء وفي ايام الاعياد خاصة . اظن
انهم يريدون بك شراً انت ايضاً ، وإياك ان تحمل عصا ، فانها
توقظ العداوة وتلهب الافئدة الحامية ، ولربما فكروا انك
خائف منهم . ولكن الحقيقة ليس هنالك ما يخيف ، وانهم جماعة
جنباء ضعفاء .

وتجددت حياتي ، واخذت المتع اللذيذة نتري علي كل يوم
بازدياد . وانغمست بالمطالعة المتعلقة بالكتب الطبيعية ، لأن
روماس نصحني بذلك قائلًا :

- هذا ما يجب ان تعرفه من العلم قبل كل شيء يا مكسيميتش ،
إن ملكات العقل تبرز عند الانسان

كنت اعلمهم ايزوت القراءة والكتابة ، ثلاث مرات في

الاسبوع . كان في اول الامر حذراً مني وساخراً بي . وبعد
مضي عدة دروس قال لي بروح طيبة :
- انك ماهر في التعليم يا شاب ! حقاً يجب ان يكون الانسان
هكذا ..

وبعد ان لمس ذراعي قال بعجب :

- اقوي انت ! تعال لنتمرن ؟

واخذ عصا من المطبخ وجلسنا على الارض ، وألصقنا اقدامنا
وكلانا بمسك بالعصا بيديه الاثنتين . وظلمنا في بدء
المعركة بتوازن كامل ، وكل واحد منا يحاول ان يرفع خصمه
عن الارض ، بينما خو خوول يشجعنا :
- هيا .. هيا .. اغلبه ..

وفي النهاية رفعني ايزوت ، واعتقد ان قهره لي زادي حباً له ،
وقال لي :

- لانتهم لهذه الغلبة ، ان جسمك قوي تماماً ، ولو انك تذهب
الى الصيد معي لأصبحت قواك اكثر من الآن بمرات . ان نهر الفولغا
في الليل كفردوس الهناء .

وبعد ان درس الكثير تعجب من معلوماته الجديدة كثيراً ،
وشكرني عليها جزيلًا . وفي بعض الاحيان كان ينهض في منتصف
الدرس ، وينزل كتاباً من المكتبة وينظر فيه ، فترى حاجبيه
وقد تراقصا وتجمعا ، وصوته يرتفع بمجهود ، ويقرأ سطرين او
ثلاثة اسطر بصوت عال ثم يلتفت نحوي وكأنه لم يصدق ما حدث
ويقول :

- اني اجيد القراءة يا أليكسي .. أسمعت ما اقرأ ؟
ويقرأ ببعض التعب : « السكون المرعب المنبعث من الفيا في
القفراء يشارك الأم الشكلى التي تبكي وحيدها على قبره ... » ثم
سألني :

- كيف تجدني ؟

وعاد ليدألني بهمسة خفيفة :

- أبا مكانك شرح ذلك لي ؟ كيف ينظر المرء الى هذه الحروف
والخطوط فتتحول فجأة الى معان مفيدة وحكم بليغة ! .. وانا
أتبين هذه الكلمات . هذه التي نستعملها ، من غير ان يهوس بها
أحد في أذني ؟ لو كانت صوراً لما عجبت . ولكنني بهذه
الأحرف اتكلم وكانما حضرتني حاضرة ، او اقرأ أفكار الإنسان
مثلي . أيمن ، قل لي أيمن ؟

أي جواب يمكنني ان اقدمه له ؟ واية كلمات ناجعة يستطيع
إفهامه بها ؟ ولستم تألم عندما اجبته :

- لست أدري ، ولا أحد يدري .

- انه عمل سحري ..

فكان يرفع الصفحة تجاه النور ، وكنت تجد في حركاته هذه
شيئاً من السذاجة البريئة ، كأنه طفل أنيس وديع . فعاد دتني
ذاكرتي الى هذا الفلاح البسيط ، الذي قرأت عنه عديداً من
الكتب .

كان شاعراً كمعظم صيادي السمك ، يعشق الفولغا والليل
والوحدة .. والحياة التأملية ، إذ ينظر الى النجوم وهي تمور في

سمائها ، ويسألني :

— لقد قال خوخول بأن شعباً يشابه شعبنا ، ومخلوقات
تحاكيها وراء هذه البلاد ، أعتقد انت ايضاً بذلك ؟ .. آه لو
استطاع انسان الوصول الى ديارهم وسألهم عن طبيعة حالهم وسبيل
حياتهم ، وأخبرنا . إذ ربما تكون حياتهم اجمل من حياتنا ،
وأسهل . نعم ، لا بد ان تكون بلادهم اجمل من بلادنا .

من الواضح أنه يحب وطنه الذي انقاد فيه حين كان يتيماً ،
والآن وهو عازب . صناعته صيد السمك ، مستقل عن كل انسان ،
هادىء كل الهدوء ، قانع حتى ولو بالقليل ، ولكنه كان يكره
بعض رعا القرويين ، ويحذرنى منهم .

— لا تخدع بكلامهم الاملس ، فذنب الثعلب املس ايضاً .
كلهم مخادعون مرءون تراهم اليوم بوجه ، وغداً تراهم بغيره . لا
يهتمون إلا بانفسهم ، ويدعون انهم يعملون للجميع . اما أغنياء الجيوب
وفقراء الرؤوس ، هؤلاء الذين ظاهرهم يسرٌ ويؤنس ، وباطنهم
يسوء ويبدس .

كان يتحدث عنهم بكرهية زائدة ، ولا يفتأ ذو الروح الطيبة
يندد بهم :

— وكيف امسوا اغنى من الباقين ؟ ألا انهم اكثر مهارة منا ؟
عليهم اللعنة ما في البرية انسان امهر من زميله . ولكن على
الفلاحين ان يتجمعوا ويتعاضدا فيصبحوا كالبنيان المرصوص او
كالقطيع الواحد . هذه الطريقة المثلى للوصول الى اطياب الحياة .
واذا لم يفعلوا فقد شقوا القرية بسندانهم . انهم اعداء انفسهم لا

يفتأون يحاربون بعضهم . وحتى صديقهم خو خول لا يتوانون
عن احداث القلاقل له .

حقاً انه قوي بعقله ، قوي بتفكيره . وعلى ما سمعت انه
يجذب النساء باناقته اليه ، وكان موضعاً للملاحقة والتعرض من
طرفهن . فاعترف لي ببساطة :

- الحقيقة انهن يحببنني تمام الحب ، وازواجهن يبغضونني تمام
البغض . وإني لانفي زواجي من احدهم لو كنت امرأة . ولكن
كيف لا تكون لطيفاً مع امرأة وهي الروح الثانية لك ! .

والانسان الذي يعيش دون حب كالحصان يعتلف الحشائش
ويحمل الاثقال ، لا يدري للتسلية معنى ولا للروح المرحه نكهة .
ان ازواجهن يضيعون فرصة الحب ، ولا يشبعون زوجاتهم
بالتقدير الكافي ، فتفتيق النساء ونفوسهن وهى ، واجسامهن عطشى ،
يردن المنهل فلا يجدنه ، يحاولن والزوج عنهن في بعاد ، حتى ولو
كن في ربيع عرسهن .

وأنا ، ذلك الانسان المرح كالريح ، والجيب الطروب ،
أحوم حولهن كأني المتضور قرب سعف النخل . ولا اطلب
منهن سوى شيئاً واحداً ، هو الا يتشاجرن من اجلي لاني مستعد
لخدمتهن ، ووظيفتي خدمتهن ..

« لكن متساويات لدي ، واني احبكن جميعاً ، كما آسف
لما يصيبكن »

هكذا كان يناجيهن حين يغدو الى عمله صباحاً ويروح الى
مكتبه مساء . وبوجه عليه ابتسامة خجل واصل كلامه :

- نعم ، لقد سبحت في كيمياء الخطيئة مع احداهن . . ميدة
راقية من المدينة ، أقبلت لقريتنا كي تقضي فيه صيفاً جميلاً . نعم
كان قدها مياساً ، وجمالها صبوحةً ، وبشرتها البضة كأنها الفضة على
غبر ، وشعرها المقصوص كالعسجد الباهت يضاهي الحرير في
نعومته ، وعيناها الزرقاوان كزرقة السماء فيها سحر وفيها خمر ،
فيها عطف وفيها أناة . كنت آخذها سمكاً كل صباح . وكلمها
أراها لا يستطيع أن اردع عيني عن تأمل جمالها ، فتسألني مرتبكة :
- ماذا بك ؟

فأجيبها وما زالت عيناها عالقة في سحرها :
- أولم تنظري الى المرأة ؟ . . أما عرفت سحر ك وجمال ك ؟
فتجيبني بعين رصعها الوله ، وأقلقها ديب الغرام :
- وليكن ذلك . سأراك هذه الليلة .
وفعلاً ، لقد جاءت . .
هذا البعوض اللعين الذي ضايقها ولدغها في كل مكان يصادفه
من جسمها البارع العاري ، حتى انها لم يعد بإمكانها التحمل :
- ان لدغات البعوض قاسية ، لا أستطيع تحملها .
كانت تقول ذلك في شيء من البكاء . . هذه هي النساء
يا صاحبي . نعم لقد كان زوجها الحاكم مسافراً .
وانهى حديثه قائلاً بصوت فيه بعض اللوم :
- نعم . . إن النساء تسمح للبعوض باتلاف حياتها .

اني ذاهبة الى الدير !

وتحدث بكثير من المدح عن كوشكين :

- اعتن به . انه ذو روح سمحة وراقية ، يخطىء الناس في عدم حبهم له ، صحيح انه يتكلم كثيراً ، ولكنه لا يعي ما يتكلم عنه .. ومن منا كامل ؟

كان كوشكين فقيراً لا يملك ارضاً يزرعها ، إنما كان أجيراً عند ليبانكوف وكذلك زوجته تعمل في الزراعة - امرأة سكيرة ، قامتها فارعة ، ولكنها قوية الجسم ، فكهة الظل . وقد اجترأ بيتهما للحداد لفقرهما . كان كوشكين مغرمًا بسرده الاخبار حتى إنه يختلق الاقاصيص من نفسه حين لا يجد ما يحكيه . وكل قصصه من نسيج واحد :

- هل سمعت يامبخائيلو انطونوفيتش أن احد الشرطين اعتزل الوظيفة ليرتدي ثوب الرهبنة وقد قال بأنه سرق من الفلاحين وعذبهم ما فيه الكفاية ، ومن الصعب فعل ذلك ثانية وقد أحس بالخطأ الفاضح .

فأجابه خو خول بكل اتران :

- واذا ظلت الامور على ما هي عليه الآن فستفقدون كل موظفيكم لا محالة .

فعاد كوشكين الى كلامه وهو يرفع من على رأسه ادران

الدجاج ، وبعض القش والتبن :

— ليس كلهم ، انما هم اصحاب الضمير الذين يجدون صعوبة في
تبلّغ النسيمة والاحتياال ... ولكنك لا تؤمن بالضمير الحي
يا خوخل ، اني لاحظ ذلك من نظراتك وأعمالك . ولكن
مهما فكرت فلا حياة بلا ضمير . اسمعوا هذه القصة : « كانت هناك
سيدة ...

وبدأ في سرد قصته عن احدى السيدات الثريات
والمهارات جداً :

— كانت سيئة الطبع وخيمة المعشر ، حتى ان الحاكم ذهب
بنفسه اليها بالرغم من مكانته وعمله . وطلب منها ان تكون
حسنة السمعة اكثر من ذلك ، لأن الجدران اخذت تتهاوس عن
سوء افعالها ووصلت حتى بطرسبرج . وبالطبع اغرت به بنظرة
وأسكرته بكأس ، وأتمت الحادثة ، ثم قالت له بصوت الناهي
بعد ان كسبت قلبه :

— اني لا أغير طبعي ، هكذا عشت وسأبقى .. اذهب الى
بيتك وكن مطمئناً .

ومرت ثلاثة اشهر على تلك الحادثة دون تغير ملموس ، الا
في يوم ليس بندي بال جمعت فلاحيتها وقالت لهم « اقتسموا كل
ارضي وأغفروا لي .. أوداع ، اني ذاهبة .. »
فقاطعه خوخل متمماً حديثه :

— الى الدير أليس كذلك ؟

فأوما له برأسه مصداقاً قوله واطاف :

- نعم هذا صحيح ، لقد ذهبت الى الدير لتصبح الرئيسة فيه . وما أدراك بالقصة ؟ أسمعتها ؟

- كلام لم اسمع قصصاً مثل هذه حتى الآن .

- اذن كيف عرفت النهاية ؟

فأجاب يسخرية :

- اعرف تماماً ..

فهز كو كوشكين رأسه مجيباً :

- انك لا تصدق احداً ابداً .

مثل هاتين القصتين ينسج أقاصيصه ، وكلها متشابهة ... فلان يقترب الاثم في شبابه ثم يهجر الحياة الى الدير لقضاء أواخر العمر . عجباً من هذه الافكار المتوالية التي تطرأ على مخيلته ، فكأن أحياناً يقطب ما بين حاجبيه ويقول :

- ان التتار شعب افضل منا ، وما كان يجب ان نحتلهم .

ولما لا يحجبه احد على كلامه ينقلب الحديث فجأة ليدور حول التعاونية للمزارعين الصغار . وعندما يتحدث روماس عن سيبريا وفلاحها الاغنياء ، يقول كو كوشكين مفكراً :

- اذا لم يصطد احد السمك لثلاثة اعوام فسيمتلئ البحر به وتفيض مياهه ويحدث الطوفان الثاني ، بعد طوفان نوح .. بالغرابة كيف تتوالد الاسماك ! ..

كانوا في القرية لا يعتبرونه شيئاً بالمرة . وكذلك قصصه واحاديثه الغريبة يكرها الفلاحون ويلعنونه . ومع ذلك فانهم يصغون اليه بانتباه واهتمام زائدين ، فانهم انما يبحثون عن حقيقة

مخبأة في قصصه الخيالية ، ويسمونه « كيس هواء » اما بانكوف فانه يقول عنه بانه يتكلم بالاغاز .

كان ماهراً جداً ، وحقاً في صنع النحاس ، وفي بناء المدا فيء القرميدية ، وخبيراً في امور النحل ، ويعلم النساء اصول تربية الدواجن . وكل أمر رغب في صنعه فانه ينهيه بنجاح رغم انه يعمل بلا اكتراث ، وكان مغرمًا في تربية القطط والحمام ، فكان يطعمها الاطعمة الغالية او يصطادها الغربان ، ولهذا ايضاً زاد اهل القرية في بغضهم اياه ، ولأن القطط احياناً تأكل دجاج الجيران ، فتعدو المرأة خلف القط وتقتله بلا شفقة ، ولم كنت تسمع شكايات الجيران من حمامه وقططه فيقول :

— يا لهم من اغبياء ..! ان القطط حيوانات صيد ، حين نعلمها اصطياد الطير نربح وتربو طيورنا على المئات . وهذا يعني ان الغنى قد تسرب الى جيوبكم .

لقد تعلم الكتابة والقراءة منذ صغره ، ولكن نسيها حين كبر ولم تعد له الرغبة في فهم أحاديث خو خول . وكان يقول :

— ليس ايفان كروزني عدواً لرعاي الشعب .

كان ايزوت وكو كوشكين وبانكوف يكتشون الى ساعة متأخرة من الليل معنا ، وهم يتباحثون عن الكون وعن الحياة في البلاد النائية ، وعن الفكرة الثورية بين الشعوب . وقد أبدى بانكوف غرامه الشديد نحو الثورة الفرنسية بقوله :

— لقد سطرنا بدء حياة جديدة .

مهجع القسيس

طالب بانكوف حصته من إرثه من والده قبل هذه المدة
بعامين ... كان والده فلاحاً غنياً ، له عينان جاحظتان مربعتان ،
وذو نكافة في رقبته (عاهة دائمة متدلّية تزن الكيلوغرام تقريباً) .
يحب التلصص على اعمال زوجته ، وقد ألبسها زي المدينيات .
وكلما مر والده من بيت ابنه بصق ولعنه ، وشاركه اغنياء القرية
بإظهار غضبهم نحو هذا الشاب ، لأنه أجبر بيته لروماس - عدوهم -
ولكنه لم يأبه بهم بل وتكبر عليهم وسخر منهم . وقد كره
حياة القرية .

- لو كنت اعرف صناعة ، أو ألم ببعض الشيء بالتجارة لأقت
في المدينة ، وكفيتكم شري .
كان حسن البنيان والهندام ، محافظاً على مكانته ، جسوراً في
لباقته ، واحياناً يسأل روماس :
- ماذا جعلك تتعاطى عملاً كهذا . ! أقلبك أم رأسك أم
تفكيرك ؟

- وأي الثلاثة تظن يا بانكوف ؟
- أخبرني انت ، اني شاك في ظني .
- وأيهما تعتقد انه الاوفق لي ؟
- التفكير تفكيرك يا عزيزي ويحق لك الاختيار ، فأي

شيء اخترت ؟

كان خو خول عنيداً ، ومتستعاً بذكاء راجح حتى انه يجبر
السائل لأن يجيب من نفسه . وكذلك حصل مع بانكوف
فتراه يجيب :

- بالطبع عقلك .

- لماذا ؟

- لأن هذا هو الاوفق . إذ استعمل المرء عقله فلا ضرر عليه ،
وسيربح لا محالة ، واذا ربح فهذا امر يستحقه كل الاستحقاق .
اما اذا استشرت قلبك فيما تفعل فاعلم انه مستشار سييء الطالع .
اذا فعلت كما يأمرني قلبي فبئس الامر ، والمصائب - لا شك -
عديدة وستحيط بي من كل فج . ولكنك اضمرت النار في مهجع
القسيس ، ذلك المشاكس في أي امر ، والمعارض لأي مطلب
وقد علمته مراراً ألا يتدخل في حادثة لا تعنيه .

كان هذا القسيس المعمر ؛ خبيث النفس ، ذاق اللسان
وجبه مدبب كوجه الثعلب ، وقد كرهه بانكوف اكثر
لتدخله في شؤونه الى جانب أبيه ، واطهارعداوته ايضاً . وكثيراً
ما صرخ في وجهه ، ثم عاد الى الكف عن هذا العمل ، وكنت
انا ايضاً أبادله الكراهية ذاتها بعد ان احسست منه ذلك .

- ٣٤ -

يكرهون الحياة

كنا نقضي الأمسيات في الغرفة الصغيرة النظيفة ، وجدرانها
الحشبية العارية ، ونوافذها المقفلة ، ومصباحها الخافت في الزاوية

«نسمع حديثاً غامضاً من رجل غامض يجلس خلف هذا المصباح
بلحيته المجددة ، وهو يقول :

— الامر الهام والواجب على الانسان هو ان يستمر في تقدمه ،
وخطأ تماماً إذا بقي كالحیوان لا يمتاز عنه بشيء .

كان الفلاحون الثلاثة يصغون اليه بعيونهم الصافية ووجوههم
الطافحة بالذكاء « فايزوت » هاديء صامت يصغي ، وكأنه يسمع
صدى من بعيد وكو كوشكين ينقتل بين كل آن كأنما يهاجمه
سرب من البعوض وبانكوف يداعب بأصابعه شاربہ الاشقر القصير
في كل لحظة ، وهو يسمع ويتابع تفكيره .

أعجبتني خلة في بانكوف هي انه لم يكن قاسياً في معاملته
ولا بلسانه نحو أجيره كو كوشكين ، وخصلة اخرى هي ان
الانسان يجد فيه اذنأ صاغية لأي امر .

وبعد حديث المساء كنت اجلس امام النافذة ، واتطلع الى
القرية النائمة حيث يسود السكون ، والنجوم اللألاء تخرق
هذا السكون والظلام ، فينقبض قلبي لهذا الموقف ، لأن
افكاري تتدفق وأصبح في اعماق الخيالات . إن هناك آلاف القرى
كقريتنا على سطح المعمورة .

كان يغمرني هذا الفضاء المظلم فيشعري بالتعب ، فيلاحقني
كرى النوم ، والاضطراب الغامض ، اللذان يتسللان الى شغاف
قلبي ... كم كنت صغيراً وتافه القيمة ؟ ...

وأخذت حياة القرية تبدو لي جامدة لا طعم لها مع اني
قرأت في الكتب كثيراً عن ان الريف يعمل على نزوج

العبقريه . واي عبقرية تراها في وجوه لا تعرف كيف تضحك او في اجسام مريضة عاجزة !؟

ومع ان العمال في المدينة يعملون اكثر من الفلاحين الا انهم اكثر مرحاً ، ولم يشكوا من الحياة بينما يشكوها الفلاح ابدأ . بالطبع لم تكن حياة الفلاح بسيطة إذ ان عليه ان ينتبه الى خصب الارض ورعايتها والى كيفية معاملة التجار .

لم اجد في اهل القرية ما يشفي غليلي ، كلهم - وهذا ما استنتجته - ضعيفو العقول يتابعون حياتهم وكأنهم في حلم طويل او كأنهم يخشون بعضهم ولا يثقون حتى بأنفسهم ، فانك ترى حياتهم مشابهة - اكثر المشابهة - للذئب تماماً ، ولم أفهم حتى الآن لماذا يكرهون خوخول وبانكوف وكل جماعتنا ، هذا الكره الفظيع ، نعم لقد صعب علي ، لماذا لا يحبون من يودون املأ حياتهم بالانسانية العاقلة .

ومن تلك الاحايين بدأت استرجع المدينة في مخيلتي وكيفية العمل المجد فيها ، وهذه السعادة الجاحمة الشجاعة وخاصة اذكر عاملين نشيطين من المدينة هما :

ف كالو جين ، وزد نيباي

مصلحا ساعات كبيرة وصغيرة مستعدان لتصليح كل الآلات ادوات جراحة ماكينات خياطة ، آلات موسيقية ، واشياء اخرى . كانت هذه اللوحة معلقة على باب حانوت صغير بين نافذتين مغبرتين ، وخلف احدي النافذتين ترى كالو جين جالسا سمين الجسم ، مدور الوجه ، لا تغادر البسمة فمه وعلى صلعته الصفراء ورقة كبيرة

وبين يديه آلتان دقيقتان ، يحرك شاربہ القاسي حين يغني بفمـه
المستدير .

وراء النافذة الثانية يجلس « زد نيباي » نحيف الشكل يشبه
ابليس بلحيته الطويلة الرفيعة ، أنفه معقوف وعيناه مظلمتان ،
وجاحظتان كالخوخ ، وهو ايضاً منهمك في عمله وتراه دائماً يلاعب
اصابعه بالآلة التي امامه ، ويغني بصوت رخيم خفيض .

وخلفها الاسلاك والأدوات والعجلات وآلات الموسيقى
وكرات الارض المدرسية ، ملقاة على الارض بغير انتظام ،
وتتراكم الساعات على الرفوف ، ورفاصتها تطن بلا هوادة .

أحببت كثيراً الوقوف امام هذين الرجلين وهما يعملان طوال
يومهما بلا كلل ، ولكن جسمي المرتفع العريض حال دون مرور
الضوء ، فكاننا ينظران إليّ بمقلقة مرعبة ، ويلوحان لي ان أغرب
من امامهما ، فأذهب وانا افكر بالحسد الذي يعتورني من هذين
العاملين الشيطانيين واقول : من حلاوة الدنيا أن يعمل الانسان
ما يريد ويرغب ولعمري تلك اللحظة تكون أحلى من اية ساعة
يمرح بها .

كم كنت احترمهما ، وأؤمن ايمانا وثيقاً بانهما يديران كل اسرار
الحياة وكل محتويات هذه الآلات ، هذه الحياة الحاملة التي تجاب
السأم لكل نشيط ، وكذلك جلبت لي . وايضاً صعب علي ، فهم
عقول الفلاحين الجامدة التي لا تهتز ، والنساء لا يغيظني منهن الا
الا شكواهن من أجسادهن الناحلة ... هموم في القلب ، ثقل على
على الصدر ، انكماش في البطن .. أمراض كهذه يعدونها وقتما

يجلسن على مصاطب بيوتهن في أيام الاعياد والاحاد .
كان الفلاحون عصبي المزاج ، يكفرون لأتفه الاسباب
ويقذعون في كلامهم لأتفه الأمور ، فمثلاً تقاتلت ثلاث عائلات
بالعصي من اجل جرة عتيقة ، لا يساوي ثمنها وهي جديدة بضعة
قروش ولم ينته هذا النزاع الا حين هشت جمجمة شاب وكسرت
ذراع عجوز ، ومع ذلك فشجار مثل هذا نادر الوجود .

كان الشبان يعاملون البنات معاملة ثائرة مهيجة فحينما يسكون
باحداهن في الحقول اذ يرفعون لها ثوبها الى رأسها ويربطونها
ويدورون حولها مسرورين ويسمون هذه اللعبة بالزهرة . فكانت
الفتاة وهي عارية من اعلى خصرها الى ما دون ذلك ، تصرخ
وتشتم ولكنها في الحقيقة تشعر بهناء حينما يمازحونها بهذا الشكل
ولهذا فانها لا تعجل في اسدال ثوبها من رأسها .

وايضاً حينما يذهب هؤلاء الشبان الى الكنيسة فانهم ينهمكون
بقرص الفتيات من اجسادهن البضة ومن أردافهن ولهذا السبب
فقط يأتون كل مساء ، فيغضب القس ويؤنبهم من على منبره :

— اما كان باستطاعتكم أن تجدوا مسرحاً آخر لرذالاتكم ؟
ولقد قص عليّ روماس ان شعب اوكرانيا اطيّب منّا ،
وكل ما يمكنك رؤيته هنا الجشع والغرائز البهيمية وكذلك الاحاد
بالله وضعف حبهم القلبي له .

كثيراً ما تفاخر الشباب بسطوتهم وقوتهم ولكنهم في الحقيقة
كانوا جبناء ، فقد حاولوا ثلاث مرات السطو ليلاً ولكنهم في كل
مرة يفشلون ، وفي آخر مرة ضربني احدهم بعصاه على ساقى ،

فسكت قليلاً منتظراً افلات الكلمات الوافية ، نعم ان لها ارواحاً وشكوكاً .

كان ايزوف يعشق الليل وحاسته في تفهم الحب والجمال جد مدركة . فعندما يكلم احداً ينتقي الجمل الظريفة ، جمل الشاب الحالم ، المؤمن بالله الصادق في ايمانه ، رغم ابتعاده عن الكنيسة وعن طقوسها الدينية .

كان يتصور الخالق بأنه سيد الكائنات وشخص كبير السن وقور ، جميل المنطق ، عاقل ، رفيق البشر ، لا يستطيع التغلب على قوى الشر . . . لا لأنه ضعيف القوى إنما لأنه لا يملك الفراغ الكافي لابعاد الناس عن الشر ولكنه سيحاول ذلك ، تريت قليلاً تر العمل . إنما المسيح وحده الذي لا يعتقد تماماً به :

— لا أرى اي دخل له في قوة الله . نعم ان الله موجود وهذا يكفيني ، اما الناس فلم يكفهم ذلك ، فأوجدوا شخصاً آخر ولقبوه « ابن الله » وماذا لو كان ابنه ؟ كان يجب ألا يموت لأن الله حي غير زائل .

واحياناً يجلس ايزوف صامتاً ببعض تفكيره الشارد ، وبين هنيهة وأخرى كنت اسمع تنهدياته :

— نعم ، هذه هي طريقتهم ؟ ..

— أية طريقة ؟

— لا شيء ، لا شيء بالمرة كنت احدث نفسي .

ثم يعود الى تنهدياته وتفكيره ناظراً الى الغيوم البعيدة بثبات الجسور المسرور :

— الحياة ... انها لشيء عجاب !! —

— نعم انها كذلك .

كانت المياه تجري أمامنا بقوة ساطعة بألوان نهـر
المجرة الرائع وعلى جوانبه نجوم لامعة براقة كأنها طيور ارجوانية
وسط السماء السوداء ، ومن بعيد اخذت الغيوم تتحلى باللون
اللازوردي المنبعث من نور الشمس الباكـرة ، المشتاقة الى الظهور ،
ينتابها خجل عارم ، ثم ما لبثت ان ظهرت كأنها الطاووس وقد
نشر ذيله وراءه عبر السماء . وبعد ان لمعت عيناه بهذا المنظر قال
بابتسامة هادئة :

— الشمس معجزة .

فظهرت لي في تلك الآونة اشجار التفاح مزدهرة ، والقرية
محاطة بغيوم وردية من فوقها ، ومن جوانبها مئات الاشجار
الخضراء البراقة الازهار ، وهي تنتشر بصفوف رتيبة بين الدور
وفي الحقول . فأخذ الكناري يسجع والبلبل يشدو ، والطيور
تنسكب من السماء بانغامها الساذجة الغريـدة ، دون ملل وبجـاس
العامل المجد .

في أمسيات ايام العطل كانت الفتيات والنساء ، يسرن في
الشارع وهنّ يغنين بأعين خافقات بالبسات الراضية فيحييهن ايزوف
ببسمته من بسماته . وفي هذه الايام تحوّر شعوره وغرقت عيناه
في هوّة غامضة . واخذت تقاطيع وجهه شكلاً اكثر غموضاً عن
ذي قبل ، كان ينام طوال النهار ليخرج ليلاً الى القرية بعد هبوط
المساء فيأزرحه كوكو وشكين بخشونة مصطنعة ، فيجيبه باستحياء :

- حسن . وما عسى المرء ان يفعل ! ؟
 فيسكت ليعاود قوله ، آه ، ان الحياة حلوة فكـربها تر
 حلاوتها . قد تنسى بعض الكلمات التي يقولها لك زميلك والبعض
 الآخر ان تنساها حتى آخر العهد بك . وعندما تنهض من الموت
 فهاته الكلمات اول ما تذكر من دنياك .
 فقال له خو خول محذراً وبمازحاً :
 - انتبه ، لا بد وان يقتلك ازواجهن .
 فأجابه موافقاً :

- نعم ، ولم لا ! ؟ .. إذا كان هناك من سبب .
 ومع كل أمسية كان ايزوف يشارك الطيور بغنائها ، وهو
 عابر السهل ثم الحقل ، يمضي على شاطئ النهر وحيـداً فريداً .
 وكان الفلاحون يتغاضون عن هفواته من اجل اغنياته الرائعة .

- ٣٥ -

الهرطقي الاسود

أخذ عدد الفلاحين حول حانوتنا في ازدياد ملحوظ وخاصة في
 أمسيات السبت و كنت تجد بينهم دائماً سيزلوف ، بارينوف ،
 كروتوف الحداد ، وميكان ، كانوا يجلسون بحلقة متجاذبين
 اطراف الحديث وبين كل لحظة يترك الجمع احدهم ليحل محله آخر .
 وهكذا كانت الحركة دائبة حتى منتصف الليل ، وفي بعض

الافاقات كان ياتينا الجندي المتقاعد كوستيل ، السكيرو والاعور
والفاقد من يده اليسرى اصبعين .

ها هو يتقدم نحو الحانوت متبختراً كأنه ديك مصارعة
وبصوت أجش كان يقول :

— يا لك من كافر آثم . خو خول ، نريد ان نعرف لماذا لا
تذهب الى الكنيسة ، يا ايها الهرطقي المزعج . اننا بحاجة لأن
نعلم من اي انواع الرجال انت ؟ ...

فيتجمع الناس حوله ويسألونه ساخرين :
— يا مشيكا . لماذا قصصت اصابعك ؟ . هل كان الاتراك
يزعجونك ؟ ..

فيخوض عراقاً مع احدهم ليسرع الفلاحون لامساكه
ويدحرجونه الى منعطف الشارع ، وفيما هو يتخبط فوق الارض
يقول :

— العون ، العون ، ياللقطة ، ياللقطة !
ثم يعود من حيث اتى وقد تغطت ثيابه بغبار رمادي من
اخمس قدميه الى تاج شعره ، ويطلب منه ثمن القدح من الفودكا
فيجيب :

— ولماذا ؟ وعندها يجيبه كوكوشكين :

— لهذا المشهد ... ألم يعجبك ؟ ..

وينفجر الفلاحون ضاحكين .

النار الاولى

اضربت الطاهية النار في المطبخ في صباح احد الايام ،
وخرجت الى الباحة وكنتم منهمكاً في الحانوت ، ولم تنص
دقائق على ذلك حتى سمعنا دويّاً قوياً في المطبخ فاهتز له الحانوت
بأسره ، وسقطت علب الحلويات من على رفوفه ، وتحطم زجاج
الاروقة فأسرعت لمكان الدخان المتصاعد عند باب المطبخ ، ولا
يزال الصغير والقرقة يتعاليان ، فأمسك خوخول بكتفي وقال :
- انتظر

اقتحم روماس العجاج الفاحم الى المطبخ بينما كانت الطاهية
تندب وتنتحب فصرخ بها :

- كفى عن بكائك يا حمقاء ، اعطني ماءً .. اسرعي .

كانت قطع الاخشاب المشتعلة ملقاة على الارض ، وقرميد
الفرن قد تكسر من فوهته فاخترقت الدخان الى مكانه ، وقذفت
به على النار وبعدئذ اخذت اعيد الحطب الى الفرن . قال خوخول :
- كن حذراً يا مكسيميتش .

وأمر الطاهية :

- اذهبي واقفلي باب الحانوت .

ثم اردف : احذر يا مكسيميتش أخشى ان يكون في النار
بقية من المتفجرات ، وجئنا على ركبتيه ، فاحصاً قطع النار
بدقة وأخرج من الفرن كل الحطب الذي كنت قد وضعته فيه

وسألته :

— ماذا تعمل يا خوخول ؟

— انظر الى هذا ...

فمد الي قطعة حديد مثقوب وسطها وجدرانها الداخلية

معداء :

— أرايت ؟ أحد الشياطين قد ملأ هذه الحديد بالبارود . .

يا للحمقى ، أيّ شرّ يمكنكم ان تفعلوه بهذا البارود !..

ورفع الحديد بعيداً واقبل الى الماء يفتش وهو يقول :

— من حسن الحظ ان اكسينيا ، كانت خارج المطبخ والا

كانت اصيبت بأذى .

انقشع الدخان تماماً ، فلاحظت ان الاطباق على الرفوف قد

تبعثرت وزجاج النوافذ قد حطم ، وبضع قرميدات قد سقطت

من فوهة الفرن . لم يؤثر هذا الحادث على خوخول ايّ اثر ، حتى

انه ظنّها العوبة سخيفة لم ينجح لاعتبواها . ومن النافذة لمحت الناس

في تراكض وهم يتنادون :

— النار ، النار . . ان بيت خوخول يحترق .

فولت اكسينيا وصرخت بهلع :

— انهم يقتحمون البيت يا ميخائيلو انطونوفيتش !

— صه ، اني آت .

وجوه مشعرة ، لواها الخوف والقلق ، أخذت تحملق الى

داخل البيت من النوافذ المفتوحة . فصرخ أحدهم :

— اقدفوهم الى خارج القرية . اننا لا نجد نهاية لشرورهم .

وحاول رجل قصير ، ذو شعر رملي ان يدخل من ثـنايا
النافذة ، وكل مرة يفشل فيتمتم بأصوات غير مسموعة . فقال له
روماس :

- ماذا تعمل يا هذا ؟ . ولم تحاول تسلق النافذة ؟

- لأطفئ النار .

- لا يوجد نار ، ولا حتى خرم .

فاختفى الرجل القصير ، وخرج روماس الى الجمهور من
الحانوت وقال لهم بصوت جهوري :

- لقد أخطأ الذي حشا هذه الحديد بالبارود ، اذ لم يضع
فيها البارود الكافي ليؤتي أكله .

كنت واقفاً الى جانب خوخول انطلع الى الجمهور ، وبين
الجمع لمحت فلاحاً شاباً ممسكاً بفأسه ، كان يبدو خائفاً ، وهو
يقول لأحد جيرانه :

- لم تنجح في قذف البارود ..

وتقدم الجندي كوستين الخمور دوماً وقال :

- أخرجوه ، ياله من هرطقي .. خذوه الى المحكمة .

ولكن الناس ظلوا صامتين ، يستمعون الى روماس بانتباه
تام ومكر باطن عندما واصل كلامه :

- لنسف بيت عليكم بوضع بارود أكثر من الذي وضعتوه ،
لماذا أنتم هنا الآن ؟ .. ارجعوا الى بيوتكم .

فتعالت الأصوات :

- خذ حذرک

— ابن الاستراكية ؟

وذهب الفلاحون كل الى سبيله ببطء وخيبة امل مرسومة
على وجوههم . فدخلنا البيت ، وصبت اكسينيا لنا الشاي . ولم
ارها قط قبل الآن بهذا الاخلاص وهذا اللطف . وقالت
لروماس بجنو

— انك لا تحتاج أبداً ، ولذا يتجاسرون عليك ، ويلعبون
معك هذه الألاعيب .

وسأله :

— ألا يغضبك ما فعلوه ؟

— ليس لدي الوقت الكافي لأن اغضب ، ولا تتحمل نفسي
كل تفاهة سخيفة .

ففكرت أنه لو كان كل امرئ برباطة جأشه ، لعاشت البسيطة
حياة رغبة . ولم أبحر في تخيلاتي كثيراً إلا وسألني عن الكتب
التي أرغبها من قازان ، لأنه مزع على الرحيل اليها لأيام قلائل .
كان يبدو لي ان هذا الرجل نحره أيدٍ خفية ، وانه مثل
الساعة في عمل متواصل طالما رفاصها مستقيم . لقد أحببته واحترمته
كثيراً ، وكم وددت يوماً ان اراه غاضباً يصرخ بهياج ويضرب
الارض بقدميه أكان لي أم لغيري ، فقط حتى ألاحظ تجمع دات
جبينه وخلجات فؤاده .

ولكنه لم يستسلم للغضب يوماً . وحين يريد ان يغضب تضيق
عيناه ، وينفرج فمه عن بسمه ساخرة ، ويقول كلمات قصيرة
ومقتضبة ، قاسية بلا رحمة . وسأل مرة سوزولوف :

— ما الدافع الذي يجعل نفسك بهذا الحُبث ، وانت رجل قد قطعت مِلاّت من العمر ؟

فاحمر وجهه ، حتى ان لحيته البيضاء بدت للعيان كأنها حمراء .
فأضاف قائلاً :

— ان هذا لا يفيدك يا عزيزي . ولكنك تجبر الناس على ألا يحترموك .

فلو ما سوزلوف برأسه ، مقرأ رأيه :

— نعم ان هذا صحيح ، وانه لا يفيدني شيئاً .

وباختصار ووضوح شرح لي روماس كيف يجب أن أقوم بأعماله اثناء غيابه وظهر لي انه نسي — كما ينسى المرء لدغة البعوض — صباح الانفجار ، ومحاولة ارهاقه . ودخل بانكوف وفحص الغرف ،
وسأله :

— هل تأثرت كثيراً ؟

— مم ؟

— من ثورة البارحة .

— .. هلا تناولت معنا بعض الشاي .

— ان زوجتي تنتظرنني ..

— وأين كنت ؟

— أصطاد اسماكاً مع ايزوف .

واستأذن . وفيما هو خارج ماراً بباب المطبخ قال :

— نعم .. انها الثورة !

القيصر الجزار

من عادة بانكوف ان يبخل في كلامه عندما يكلم خوخول ،
كأنما يتكلمان عن امر يعرفانه من امد بعيد . ولما تكلم روماس
عن قصة القيصر « ايفان كروزي » تذكرت قول ايزوف :

- انه قيصر مل .

وأضاف كوكوشكين الى هذا اللقب :

- وجزار ايضاً .

وقال بانكوف بكثير من الاعتقاد واليقين :

- لم يعمل بحكمة منذ بداية حكمه ، وما الجدوى اذا قتل
كل الامراء العظماء ، وربى شرذمة كبيرة من النبلاء الصغار ؟ او
استوزر بعض الاجانب ؟ لا يوجد أي تفكير صحيح في اعماله . ان
الغني الصغير أسوأ من الكبير ، كما ان الذبابة تختلف عن الذئب .
بامكانك قتل الذئب بالبندقية ، ولكنك يستحيل عليك ذلك حين
ترعجك الذبابة .

وأحضر كوكوشكين معه بعض الآجر ، وثبته حول

المدفأة وقال :

- لم يعملوا بتفكير هؤلاء الملاعين . انهم لا يستطيعون
استخلاص الصئبان من ألبستهم فكيف يعملون هذه الاعمال ؟ ..
ولكنهم ان قرروا قتل رجل فلا يمنعهم رادع . عليك يا أنسكلو ينتش
ان تقلل من البضائع ، وان كثرت اسفارك ، ولربما اضرمو النار

في المكان الذي وضعت فيه بضائعك . والاضطراب حاصل لا
محالة طالما انك تزعج اغنياء القرية بتأسيس الجمعية التعاونية لمزارعي
اشجار الفاكهة الصغار .

استطاع روماس مع بانكوف وسوز لوف وثلاثة من المزارعين
الصغار ان يرتبوا الجمعية . واصبح معظم الفلاحين الصغار يميلون
اليه . وقد ازداد عدد الزبائن في الحانوت ازدياداً محسوساً ، حتى
ان بارينوف وميكان العديمي الفائدة كانا يفعلان جهد استطاعتهما
لمساعدة خوخول .

كان ميكان يجذبني نحوه بأغنياته الحزينة الشائنة ، التي تذهب
الى قلبي وتحرك أتونه ، وعندما يغني يقفل عينيه . انه يحب الليل ،
وان لم يكن في السماء قمر ، او حبيبتة الغيوم يستارها . وكان
يهمس بأذني احيانا في المساء :
- تغال معنا الى الفولغا .

- ٣٨ -

المغني الشاعر

حين اقتربت الى ضفة الفولغا مساء وجدت ميكان جالساً الى
جانب فلكه ، وساقاه تحركان الماء بعدم اكتراث ، فقال لي
بهدوء ظاهر :

- حين يعاملني الاغنياء معاملة قاسية أتحملهم مكرهاً
وصامتاً ، أما عندما يشاكسني الفلاحون أمثالي ، فكيف أصبر؟ ...

ان السيد المحترم يعرف اشياء لن اعرفها ما حيت . اما شبيهي
فأي فرق بيننا ؟ .. انهم يحسبون أموالهم بالملايين وأنا أعددها
بالملايم ، وهذا الفاصل الذي يحدني عنهم .

انهم يدعونني باللص ، فأني انسان لا يسرق ! كلهم يعيشون
من خيرات السرقة ، ألا يحاول كل انسان أخذ مال أخيه بأية
وسيلة كانت ؟ .. هذه سنة الكون . الله يحبنا ويفضلنا ، وكذلك
للسيطان سبيله ومهالكه .

كان الظلام حالكاً حتى اننا ما استطعنا مشاهدة معالم الضفة
الثانية . فأضاف ميكان متنهداً :

— وعلى الرجل الثبات في الحياة . أليس كذلك ؟
فتساءلت عن طريقة حياته ، وهل يجب ان أمثله بها ؟ وتابع
تفكيري عواء كلب حزين ، أضناه الجوع والنصب . ثم عاد
ميكان الى كلامه :

— وسيقتلون خوخول ، وكذلك انت .

ثم قطع حديثه فجأة ليغني بصوت خفيض ساج :

« قالت لي أمي بنظرة حنونة

قالت لي أمي ... »

« يا ياشا ، ياروحي العزيزة .. اتبع طريق الهدى دوماً

» ولكني ما أحبيت هذه الحياة

آه .. ابداً ، أبداً ... »

شعرت بشعور المنسجم ، فترنحت في مكاني ، وظننت ان
الارض تميد من تحتي .. وفجأة قطع الاغنية كما بدأها ، ثم شد

قاربه الى الشاطيء وعبره واختفى فيه دون ان يتفوه بكلمة .
فعبجت من هذا النوع من البشر ، وكذلك لوجودهم في هذه
الحياة ! ...

- ٣٩ -

ثورة على القيصر

كان بارينوف صديقاً آخر لي ، متفاخراً بكذب ، كسولاً ما
عدا نقل الاخبار ، لا يستقر بمكان قام فيه اكثر من ليلة . أقام
مدة يسيرة في موسكو ، فتحدث عنها كثيراً . إذ يقول باشمئزاز :
- انها مدينة الشيطان بنفسه ، الهباط والمباط يعكس جو
شوارعها ، وكذلك الكنائس ، فترى فيها أربعاً وستين ألفاً -
او يزيد - منها ، وشعبها لعين نمام ، تجار وجنود ومدنيون .
تجدهم هنا وهناك يحاولون اختلاس اي شيء . رغم ان في عقبيهم
مدفع القيصر بطرس الاكبر الذي ضرب الشعب به .

قامت عشية القيصر بثورة ضده استغزت بها افئدة الشعب
لانه هجرها بعد سبع سنين ، تاركاً لها ثلاثة اطفال يبيتون على
الطوى ، فغضب وصداهم بدفعه فاقتطف من الارواح ثمانية وثمانائة
وتسعة آلاف . وليس الشعب وحده قد خاف ، انما القيصر نفسه
هلع قلبه حينما سمع بعدد القتلى . إذ قال للرئيس الاساقفة
« فيلاريت » :

- يجب ان نختم المدفع ، لأنه لعبة ابليس . وهكذا ختموه .

وعندما أخبرته ان القصة ليست الا شعوذة فارغة وغضباً
مزجراً قال :

— انك لا تميل الى مثل هذه القصص . كيف تكذبها وقد
سمعتها من رجل عالم ؟ ..

ومن سفرته الى كييف لزيارة القديسين قال :

— ان كييف تشبه قريتنا تماماً .. على هضبة ، والى جانب
نهر لا أذكر اسمه لأنه عبارة عن جدول صغير ، وهو بمثابة فرع
للفولغا . واستطيع ان اثبت لك ان هذا الشعب كله يشبه ، في
عقائده ، خوخول ، مع انهم من اصل مختلف . منهم بولونيون
ومنهم تاتار . شعورهم مشعثة دوماً ، وطعامهم الضفادع التي تزن
الواحدة خمسة كيلوغرام . وعندهم ثيران عجيبة ، واصغرها
يعادل اربع ثيران من عندنا .. وفي بلدتهم سبعة وخمسون الف
راهب ، ومائتان وثلاثة وسبعون اسقفاً . واعتقد انك لا تصدق
ذلك .. وكيف يمكنك تكذبي وقد رأيتهم بأعينى ؟ ..
وانت ، أذهبت الى هنالك ؟ .. كل الارقام التي سردها
صحيحة تماماً .

بالفعل كان صاحبنا يعشق الارقام ، لذا فاني علمته الجمع
والضرب اما القسمة فصعب عليّ تعليمه اياها لأنه لم يتحملها قط .
وكان يشير بعصاة صغيرة على الرمل فيضرب ارقاماً ضخمة ، ولا
يهمه أكانت صحيحة ام خطأ . ولما ينتهي من عملياته كان ينظر
باعتجاب الطفل الساذج ويقول :

— من المستحيل عليه قراءة مثل هذا العدد !

كان بارينوف غير مهندم الشكل ، له عينان زرقاوان تضيئان وجهه الجميل برقة وعدوبة . أما من حيث الاخلاق والعادات ، فهو في تشابه تام مع كوكوشكين واعتقد ان سبب تناحرهما وخصامهما هو هذا التشابه ، وقد ذهب مرتين الى بحر قزوين ، فكان يقول عنه :

- البحر يا أخي ، يلهوله وجبروته ، اذا وقف انسان على الشاطئ ، وفكر بدراسة عميقة عن عظمته ، لشعر انه لا يعدو الجرثومة .

ثم يسكت ليعاود كلامه في تساؤل :

- ما انا من حلاوة الدنيا هناك ، كل اهل المدينة يبقون الساعات الى جانبه للبذخ . حتى ان قسيساً شاباً يشاركهم هذه المتعة ، واعرف طباحة هي خلية موظف . بإمكان اي انسان ان يجد مرضاته هناك ، وماذا احسن من ذلك ؟ وقد قالت الطباحة مرة للموظف :

« أنت ظريف يا موظفي ، وأحبك بل أعبدك . ورغم ذلك أقول ... الوداع . لان الانسان الذي يرى البحر اول مرة يعود اليه حين يدعوه الداعي مرة ثانية . هذا البحر كالسواء ، فضاء واسع هاديء ساكن .. سأذهب الى هناك ، وأخوض امواجه ، لأبقى بين طياته ، لأنني اذنبت في حياتي . كان يجب ان ارتحل الى الدير في اوائل عمري متنسكة . ولكن ، أي دير يليق بي !... »

كان يسير في القرية كالكلب الشريد ، بين احتقارات الفلاحين

واستهزاءاتهم ، ومع ذلك فانهم يسمعون قصصه بلذة شديدة ، وبعد هذا يقولون :

— ياله من كذاب ماهر !.. لا بأس به ، انه مسلّ .

وبامكانه ان يجذب بأقاصيصه كل من اراد ، حتى الفلاحين المفكرين أمثال بانكوف الذي قال لخوخول يوماً :

— ان بارينوف يخطئ في زعمه ، من ان الكتب لا تقول الحقائق عن كروزني ، وتحفي حياته ، وقد قال بأن كروزني ليس بالرجل ، انما قد يتحول يوماً الى نسر قشعم ، ولهذا ترى نقودنا مرسوماً عليها صورة نسر اكراماً له وتبجيلاً .

لاحظت ان الشعب هنا يعلق بالامور الغريبة ويجه امرها ، وعندما أثبت هذه الفكرة لخوخول ابتسم وقال :

— مهما يكن من امر . الذي اريده من الشعب هو ان يتكلم عما يرتأي ويفكر ، وبعدها سيتعلمون من انفسهم طريق الحق . اما امثال بارينوف و كوكوشكين فعليك ان تفهمهم تماماً . انهم فنانون وعباقره . والسيد المسيح يشبههم بمآربه من هذه الحياة الغاية الانسانية المثلى .

الامر الذي حداني لأن ادش ، هو امثال هؤلاء العباقره يتكلمون بالكاد عن الله وخلقهم ، وان تكلموا فبرغبة طفيفة . وسيزولف المسن احدثهم الذي يقول باعتقاد تام :

— لا يصيبنا الا ما كتبه لنا .

كنت سعيداً بينهم ، وإن شعرت بياس طغى عليّ جلّ حياتي ، لاني استطيع التعلم من تفكيرهم الفياض الشيء المزيد . وكل قضية

يتحدث عنها روماس اتخيلها جذر شجرة ميلاء شجراء ، وتمتد جذرها ويتفرع ، واحياناً يتعانق بجذور اخرى ، ولكن في الاخير تبقى شجرة واحدة ، وقضية واحدة ، وإن كانت فارغة بالمعاني .

وطالما شربت من رحيق الكتب الريان ، وتقدمت بتفكيري تقدماً محسوساً ، وحين أبدأ بالمناقشة أشعر بالثقة تعتورني وكثيراً ما امتدحني خو خول قائلاً :

— اني اتحسب التقدم يا مكسيميتش .

ولكم فرحت من هاته الكلمات المقتضية والمشجعة .

وكان بانكوف يزورنا ومعه زوجه ، . . وجهها صغير ضيق ، ثيابها ثياب حديثة مدنية ، وعيناها زرقاوان تسطعان ذكاء وحيوية ، تجلس بهدوء وسكينة في زاوية الغرفة صامتة . تحاول جهداً فهم ما نتحدث به ، وتنفجر ضاحكة ، وتخبي وجهها بكفيها ، اذا كان هناك ما يضحك ، فيغمز بانكوف لروماس ويخبره بانها تفهم ما نعني .

— ٤٠ —

قضية سرية

يزورنا رجال حذرون ، ويجلسون في غرفتي ساعات طويلة ، وقد ينامون عندنا ، ولا يعرف احد بوجودهم إلا تي وأكسينيا ، اذ كانت وفية لروماس ، وصديقة بخدمتها الى درجة العبادة . وكان

ايزوف وبانكوف يرافقان الزوار ليلاً الى احد القوارب البخارية
اما انا فاني ارقب القارب وهو يأفل ، ويمحّي أثر مصباحه المتأرجح ،
فكنت أشعر أني مشترك في قضية سرية خطيرة .

- ٤١ -

ماريا الجميلة

من الاخبار سمعت ان ماريا دورينكوف قد تركت المدينة ،
فرجت فجأة في بحر من الحيات . . اذ اني لن اشعر بعد اليوم
اليوم بنظرتها الدافئة المضطربة ، التي كانت تبشها بي بعينيهما
البسيطتين السعيدتين ، وهي فتاة مسرورة ، او أضحت الآن
مسرورة لان صديقها الكبير ذا اللحية الكبيرة اخذ يهتم بها .
ويحدثها بنفس اللهجة الساخرة الهادئة التي يوجهها للآخرين . كانت
يربت على لحيته اكثر حين يصدقها ، ويلمع في عينيه بريق السعادة
والحجل ، اما هي فان صوتها الكناري المرح يدوي في اذنيه
بدلال ، ويديها البضتين تتحركان دوماً بخفة كأنما تبحث عن شيء
في الهواء ، بثوبها الأزرق الفاتح والمسحة الخجلة تلمع على وجهها
الوردي . وقد حاولت رؤيتها كثيراً لرغبتني في ذلك .

- ٤٢ -

موت ايزوف

في اواسط تموز اختفى ايزوف ، فتساءل الناس :
- هل يكون قد غرق ؟ ..

— من الممكن ذلك ..

ثبتت هذه الفكرة عندما وجدوا بقاربه ثقباً مهشماً . ومن الممكن ان يكون قد غفى ، فقفذ به التيار وحدث ما حدث . كان روماس في قازان وقت حدوث الفاجعة . وجاء كوكوشكين بعد الأصيل الى الخانوت ، ورمى نفسه على كومة من الأكياس الفارغة صامتاً بيأس وحزن ، وسألني وهو يحملق بالأرض :

— متى يعود خوخول ؟

— لا أدري .

فوضع يده على خده ، وما لبث ان داعب ذقنه بها ، وهو يشتم ويقذع في السباب ، فسألته :

— ما سبب غضبك ؟ ..

فنظر إلي وعض على شفتيه ، وكانت عيناه محمرتين ، وذقنه ترتجف ولكنه لم يستطع ان يتكلم ولا بنبرة . فهت من نظراته ان الأمر ليس بالهين ، واخيراً وبعد جهد مكبوت احتمله طوال الوقت قال :

— ذهبت وميكان لفحص مركب ايزوف ؛ كان الثقب في قاعه يدل على انه حطم بفأس ، وقد قتل ايزوف ، وهذا أمر لا مرأ فيه .

ثم ما فتى ان عاد الى سبابه المقذع يلعن الفاعلين ، ويقطعه نحيب جاف ، جرى من مقلة منهكة . كل جسمه كان يرتجف ويئن من الغضب . أراد ان يبكي ، ولكنه لم يجد للدمع مسيلاً . وفجأة نهض وقفل راجعاً .

وفي المساء الثاني ، كان بعض الصبية يلعبون على شاطئ
النهر ، اذا بهم يجدون جثة ايزوف ، ممددة على وجهها . والجمجمة
قد خلت من دماغه فعدت فارغة من ضربة خلفية بفأس صغير .
كان التيار يحرك له قدميه وذراعيه حتى لتظنه يحاول الخروج من
الماء . فاجتمع نفر من الفلاحين حول الميت يربو عدددهم على
العشرين ، كان هؤلاء أغنى اهل القرية ، لأن العمال ما زالوا في
عملهم في الحقول . كان كوزمين واقفاً ، وساقاه منفرجتين ،
وبطنه متدليلة الى الامام ، يحملق بي آنأ ، وبكو كوشكين آنأ
آخر . وتكلم بحركة :

— يا لها من فاجعة ، هذه الروح الطيبة !

ثم اقبل القرويون وكأن على رؤوسهم الطير ، حزينين
لا يتفوهون بحرف مفيد . واخذوا يتحاورون :

— كان مزعجاً ..

— من ؟ هو ؟ ..

— نعم الأمر مزعج .

— رجل مقتول بلا سبب .

— لم بوذا نسياً .

— نعم ، لم يغضب أحداً قط .

— إذن لماذا قتلتموه ؟ لماذا قتلتموه يا منا كيد ؟ ..

لم يصرخ كوكوشكين قوله الأخير ، حتى انفجرت امرأة
ضاحكة ضحكة هستيرية ، وكان صراخها كأنه السوط فوق
أكف الجماهير . ثم أخذ الفلاحون يتبادلون النظرات الغاضبة

والتفت كو كوشكين وضرب كوزمين على بطنه ، كأنه يقلد
من يضرب على طبل وقال له :

— يا للحيوان ...

وشق طريقه الى بقبضتيه وقال بكثير من المرح :

— اخرج من هنا ، لقد توقدت حميتهم .

لقد سبق وضربه أحد ، فشق له شفته وأدماها ، ولكن
وجهه ظل طافحاً بالسرور . ثم قال بصوت عال :

— هل رأيتموني كيف اني ضربت كوزمين ؟ ..

وبنفس اللحظة جاء بارينوف ليقرب من كو كوشكين بين
زحمة المتجمعين . أما أنا فقد سبحت جثة ايزوف في ناظري ،
وتحركت باهتزاز الماء ، بل ونهضت لتسير فوق تيار النهر ،
فعاودني قوله ... « يكون الطفل في اعوامه الاولى كالعجين يقبل
العرك ، وسجتيه تلصق بها كل ما يحلو لها ، فعلينا كسب هذه
الميزة الرائجة فيه حتى ننميه كيف نشاء . وأحياناً تكون طبيعة
الانسان وهو رجل تشابهها وهو طفل . خذ مثلاً خو خول ،
بأمكانك القول بأنه انسان مجبول بالحديد ، ولكن روحه روح
طفل سادج بريء » .

فتقدم كو كوشكين مني وقال لي بهمس :

— المنية اقتربت منا . انهم سيخلصون منا بنفس الطريقة التي
عاملوه بها .

غرام في الخريف

عاد خو خول بعد يومين او ثلاثة في ساعة متأخرة من الليل
فأقبل على هاشاً مسروراً وقال :

- انك لا تنام كفاية يا مكسيميتش !

فأجبهته دون ان أعيره التفاتاً :

- لقد قتل ايزوف ..

- يا الهي ، ماذا اسمع ؟ .. !

تحركت عضلات وجهه باشكال مضطربة ، واخذت لحيته
ترتجف كأنها الشلال يريد ان ينحدر على صدره . فوقف وسط
الغرفة ناسياً رفع قبعته اجلالاً وقال :

- وطبعاً القاتلون مجهولون !

وتقدم ببطء وجلس ، ماداً قدميه بتعب وقال :

- كثيراً ما حذرته ... أجاها رجال الامن ؟ ..

- اقبل رئيس الشرطة البارحة .

- وما قال في ذلك ؟ .. بالطبع لا شيء .

فأخبرته ان رئيس الشرطة وقف عند حانوت كوزمين ، كما
كان يفعل دائماً ، وأمر بأن يسجن كو كوشكين لضربه الحانوتي .

فذهب الى المطبخ واعد الشاي . وفيما نحن نشرب قال :

- كلما كان الانسان حسن الحال يخشونه اكثر ، ويقتلونه بهذه

القساوة . عندما أخذوني أسيراً الى سيبيريا تعرفت على لص .

فاخبرني أن جمعيته عصابة منظمة عددها خمسة فقط ، وحين
اجتمعوا مرة قال احدهم : « ما الجدوى من السرقة يا اصحاب؟
انها لن تفيدنا ولن تفيدكم » لذا خنقه ، ذلك اللص ، عندما كان
نائماً . وقد قال : « لقد أجزمت عدة جرائم بعد ان قتلت هذا
الصديق الطيب والماهر » . وعندما سأله عن سبب قتله الرجل ،
أكانوا خائفين من ان يخونهم ؟ فأجاب : « انه ما كان ليخوننا
قط ، انما لم نحب ان يكون بين الخاطئين قديس » .

ثم نهض خوخول ، واخذ يذرع ارض الغرفة ، وغليونه بين
اسنانه ، واخذ يتحدث بهدوء :

- كنت أخشى دوماً قتل اطيب الناس الذين يفنون خدمة
الشعب . فبمسلك الناس احد طريقين ، للتخلص منه . إما لأنهم
ملوا سماعه وتوبيخه ، او انهم يعملون بما يشير عليهم لسان الاعداء ،
فيزحفون على بطونهم بتؤدة قصدهم التخلص منه وقتما يحين الاوان .
ثم اخذ كأساً من على الطاولة ، واتبع كلامه : عندما
يعيش افراد الشعب حسب مبدأ قدخطوه لانفسهم ، ويأتي مصلح
يعارضهم فيه ، فانهم ، بكل تأكيد ، يشاكسونه :

- ان حياتكم غير صحيحة .

- غير صحيحة ؟ وكيف ذلك ؟ لقد وضعنا كل ما في وسعنا
في هذه الحياة ، أغرب عن وجهنا لا نريد نصائح باطلة ؟
وهكذا يثورون ضد هذا المعلم وضد هذا القديس :
- دعنا لوحدنا

واذا كانت الحياة ، بطبيعتها ، تنتقل من الجيد الى الاجود ،

ومن الحسن الى الافضل ، فانه من الواجب عليهم اتباع هذا المصلح .

واشار الى الكتب ، وأضاف : آه لو استطعت ان اكتب كتاباً عن هذه الحياة ، ولكني لست اهلاً لهذا ، ان افكاري غامضة ومتطرفة .

ثم اخنى رأسه على يديه ، وجلس على طرف الطاولة واردف : وكيف يمكننا نسيان ايزوف !.. اظن انه يجب ان نذهب الى فراشنا يا مكسيميتش .

فصعدت الى غرفتي وجلست الى جانب النافذة . كانت الكلاب تذبج في الحقل وتعوي ، ولولا اصواتها لظن المرء نفسه يسبح وسط جزيرة عائمة . وفيجأة طن الرعد من الافق ، وموجة من الحرارة طغت على الجو .. شاهدت خيال ايزوف مستلقياً هناك ؛ على شاطئ النهر تحت دغلة اشجار القصب ، وجهه المزرق يساعد النجوم في النور ، والعيون الجامدة تسبح في السماء باحثة عن لا شيء ، ذقنه الذهبية قد تلبدت وتلممت ، وفمه مفتوح كأنه فم مذهول ، وسمعه يكلمني :

- العطف يا مكسيميتش ، العطف والوفاء أهم الامور في الانسان . ولهذا فاني احب عيد الفصح كثيراً لان المرء يتصافى فيه مع صديقه .

سرواله الأزرق قد جف من شمس المساء ، فظل ملصقاً بساقيه المغسولتين بماء الفولغا ، والذباب يلتصق على وجهه في ازدحام ، وينضح من جسمه رائحة مستكرهة .

سمعت خطوات ثقيلة على السلم ، وظهر بعدها روماس ، وجلس الى جانبي ، وامسك ببلحيته وقال :

- اريد ان اخبرك اني على وشك الزواج .

- ولكن لست حياتك مستقرة لتعيش مع امرأة !

- اني مززع على الزواج من ماشا دورينكوف .

لم أستطيع ان اخفي ابتسامة ذات عدة معاني ، اذ اني لم افكر قط بأن اسم هذه الفتاة كان ماشا ، حتى ولم اعلم أن احداً من ذويها قد لقبها بهذا اللقب اللطيف الناعم ، فمن الممكن ان يكون هو المتطوع لهذا اللقب لحبه لها وتقربه منها . وسألني :

- فيم تفكر ؟

- في .. لا شيء .

- او تظن ان عمري لا يسمح لي بالتقرب منها .

- لا لا .. لم اقصد ، انما يعني .

- لقد قالت هي نفسها بانها تحبني . وكذلك بانك كنت تحبها !

- اظن ذلك ، اظن اني احببتها يوماً .

- والآن ، هل انتهى حبك لها ؟ .. هل جف نبع الحب

عندك ؟

- بلى ، قد انتهى وجف .

- ... كل اطوار الشباب تبقى مضطربة في سن المراهقة ،

فيرى الشاب أنه مغرم بتلك ، ويجب اخرى ، ويميل الى ثلاثة .

وحين تسمع ان احداً قد انساق في طريق الزوجية تحزن

وتقول ؛ يا ليتها لك ، ومن الاجدر بها ؟ .. انا الذي احببتها

اكثر من الجميع . ولكن بعد مدة تسلوها بغيرها ، وتنظر اليها
- إن وجدتتها - نظرة عطف واحترام .

ثم ابتسم ابتسامة بعد هدأة من السكون ، وتابع : نعم ..
لقد خسر انطونيو معركة أكسيوم امام اوكتا فيوس لانه
أهمل اسطوله وأواجباته كقائد ، وأدار حيزوم سفينته تجاه
كليوباتر اليلحق بها . وهكذا يمكنك ان تعرف تأثير الحب على الانسان
وكيف يمنعه من التفكير الصالح ، ويرميه في وهاد لا قرار لها .
وعلى كل حال ، انني قررت الزواج ، ولن احيد .

- ومتى سيكون القران ؟

- في الحريف ، عندما ينتهي موسم التفاح .

انهى جملته الاخيرة وخرج ولم يعد ، فعدت الى سريري ،
غارقاً في خضم من الاحداث ووصل تفكيري الى اني من المحتم
علي أن أغادر هذه القرية قبلما يقبل الحريف ، ويحدث ما يحدث ،
وأشهد ما اكره .

- ٤٤ -

النار الثانية

في فجر يوم من أيام شهر آب قدم خوخول من قازان ، جالباً
معه بضائع كثيرة ، وبعد ان اغتسل جلس ليحتسي الشاي معي ،
وقال بسرور :

- كم هو جميل التنزه على ضفة النهر ليلاً !

ولم يأخذ في جلسته لدقائق معدودة حتى اظهر اهتماماً في شبه
عبير الهواء ، ثم قال بقلق :

.. ألا تشم رائحة دخان ؟

ولم تمض لحظة حتى ولولت اكسينيا في صحن الدار :

- النار ..

فانطلقنا خارجين لنرى الخطب ... كانت الحظيرة تلتهب ،
وفيهما كل مؤونتنا من فحم وزيت وكاز . فوقفنا مذهولين نمنع
النظر في النار . وأمسك خوخول بيد اكسينيا ، حين مرت
ومعها علبة الماء ، وقال لها :

- لا جدوى من الماء ، اسرعي الى الخانوت ، وانت يامكسيميتش
حاول ان تخرج براميل الكاز .

وقذفت باحد البراميل الى الخارج ، وأمسكت بالآخر لألقه
بالأول وإذا بسدادته تنفلت من مكانها ، والكاز ينكفت على الارض .
وفما كنت ابحث عن الغطاء ، تسالت السنة النار حتى وصلت الى
الجدران ، فأخذ السقف يتململ ، وأزيز النار يصل اذني . وعندما
خرجت شاهدت نساء واولاداً تجمعوا حولنا يندبون . وفي وسط
الشارع لمحت امرأة شبيخة مرتدية ثوباً اسود ، تهز قبضتها وتصرخ :
- الآن يا عفاريت .. ما رأيكم ؟ ..

وعندما عدت الى الحظيرة رأيتها قد امتلأت بالدخان الاسود
الكثيف ، ولم يبق من الحائط غير شعلة نارية تتحامل للشبات ولا
بد لها من السقوط . ومع ان الدخان غمر المكان ومنعني من
النظر ، الا اني دحرجت برميلاً ولكنه التصق بمزلاج الباب ولم

يتحرك ..

أخذ السقف يطرني بوابل من الشرر المتطاير يلذع به وجهي وجسمي ، فاستغثت طالباً النجدة ، واذ بجوخول يخرجني الى الباحة ويقول :

- أسرع قبل ان ينفجر برميل السكاز .

وانطلق الى البيت ، وتبعته داخلاً غرفتي كي انقذ كتيبي ، ورميتها من النافذة ، وحاولت قذف صندوق القبعات ايضاً ، ولكن النافذة كانت ضيقة جداً ، ولم احطم زجاج النافذة واطارها الا وسمعت دويماً أصم أذني ، أعقبه ارتطام شيء كبير على السقف ..

كان برميل السكاز قد انفجر ، فالتهمت النار السقف ايضاً ، ووصل اللهب الى غرفتي ، فاصبحت الحرارة لا تطاق ، فأردت الهرب من السقف ، ولكن الدخان أضلني فاندفعت عائداً الى غرفتي ووقفت حائراً بينا اسمع طقطقة الجدران والسقف وقد قاربت من السجود ، فشعرت ان شعر رأسي يحترق ، وان الدقائق أصبحت اعواماً ، فبدت من النجاة وخارت قواي ، وتحرق عينايا فحاولت حمايتها بكفي القذرين . ولكن غريزة حب البقاء جمعت علي بعض الحكمة ، فالتفتت بفراشي ، وبألبسة روماس وقذفت نفسي من النافذة الى الشارع . ولم أعِ الا حين شعرت ان روماس الى جانبي يوقظني ، فسألني :

- هل انت بخير ؟

ودون ان اجيب جلست واخذت أحملق - بألم - الى بيتنا

كانت ألسنة النار كأنها الجداول المائية تتدفق ، أو ألسنة الكلاب
الجانعة تلحق ما تصل اليه ، ويخرج من النوافذ دخان اسود ،
فصرخ خو خول مرة ثانية ، لما لم يحظ بجواب مني :

— هل انت على مايرام ؟

بوجهه المغطى بطبقة من البقع السوداء ، المخططة بعرقه السائل
وعينييه المحمرتين المنتفختين ، ولحيته المعلق عليها رماد النار .

وبعد ان تفحصت كل ما امامي شعرت بألم شديد في ساقى
اليسرى وتحاملت على روماس واخبرته ان ساقى قد خلعت من
ركازها . فمد يده الى ساقى دون ان يكلمني بحرف وسحبها سحبة
أحسست معها بموجة من الألم قد طغت على كل ذاتي ، وبعد بضعة
دقائق اخذت اسير بعرجة خفيفة ، وانا اشعر بسعادة لا تدانيها
سعادة ؟ اذ كنت استطيع ان احمل ما انقذ من البيت . فقال
روماس بمرح الطروب ، وغليونه بين اسنانه :

— ظننت انك مت وأني فقدتك عندما انفجر البرميل وتطاير
كازه على السقف وانفجرت النار كأنها العمود المركز بالارض
والموصل بسقف الغرفة !

كان هادئاً كهادته في كلامه ، وكذلك عندما اخذ في تطبيق
المتاع التي انقذناها ، فقال لأسكيننا الحزينة :

— ابقني هنا لأحاول اخماد النار .

ثم نظر الى قطع الاوراق وهي تتطاير مع الدخان وقال :

— اخ ، الكتب ، يا للعار ! .. يا حبيبتي العزيزة ..

امتدت النيران لأربعة مساكن مجاورة لدارنا ، فاخذ الناس

يسرعون لانقاذهم ، بيوتهم ومتاجرهم واصواتهم في عويل :
- النار .. الماء .. انقذوها .

اقرب مكان لجلب الماء هو الفولغا ، فقسم روماس الفلاحين الى قسمين ليهدموا السياج الحشبي من هذا الجانب والبعض الآخر من ذاك . واتبعوا اوامره بكثير من الطاعة ، وكانهم يناضلون بجذر ويأس . وانا - بطبعي المتحمس - شعرت اني اقوى مما كنت . ولاحظت في نهاية الشارع ثلة من الاغنياء بينهم كوزمين ورئيس الشرطة واقفين هناك يلوحون بعصيم صارخين .. يا لهم من متفرجين كسولين ، لا يحركون ساكناً لمشاركتنا العمل . واسرع الفلاحون على جيادهم مقبلين من الحقول المجاورة ، وندبت النساء بؤسها ، وتبعثر الاطفال فرادى وثنى . ولما امتدت النار اكثر عجل الفلاحون في هدم جدار الزريبة بأسرع وقت ، والجمر والشرر يتطاير فوق رؤوسهم ، فيهربون منها ليعودوا من جديد . فصرخ بهم خوخول :
- لا تكونوا جببناء .

واكنهم لم يأبهوا لقوله ، فاخذ قبعة من الارض ووضعها على رأسي وقال لي :

- قف انت في هذا الجانب لأذهب الى ذاك .

واخذنا ندفع الحاجز الى ان رميناه ، ثم اتى جمع الفلاحين وابتعدوا عن مكان الحريق وتقدم روماس مني وسألني :

- هل اصابتك النار ؟

- كلا لقد تجنبتها ..

كان ينفخ في نعسي قوة ونشاطاً وسروراً واغترباطاً ، فأحاول
دوماً الظهور امامه بالمظهر الذي يطلبه مني ، واعمل ما يرضيه .
كنت افكر في هذا والورق المتطاير من النار يحفُّ برؤوسنا ،
كأنه الحمام جاء ليودعنا ..

لم نستطع منع تقدم النار من اليسار ، مع اننا اخذناها من
الطرف الايمن فامتدت واحرقت عشر بيوت . ثم ترك النار
وأمسك بي وسار مبتعداً ، فسمعت ، وانا أمر من امام جماعة
الفلاحين ، يقولون باستهزاء :

- انها جريمة حرق .

فقال كوزمين :

- يجب ان نبدأ تفتيش الحمام أولاً .

التصقت هذه الكلمات بنفسي وأهاجت ما بقي من قوتي ،
فأسرعت اعمل بلا هوادة الى ان خارت قواي ، ولم اعد أعني ما
حلّ بي .. وحين أفقت من اغمائي كنت جالساً على الارض ،
متكئاً على شيء حامٍ ، بينما كان روماس يسكب على وجهي
الماء ، والفلاحون حولي يهيمسون باعجاب :

- حقاً ان مكسيميتش قوي !

- نعم ، وصادق العزيمة .

فأمسكت رأسي بيدي وأخذت ابكي خجلاً . ولكن روماس
ربت على شعري مطيباً الموقف قائلاً :

- استرح قليلاً ، لقد عملت ما فيه الكفاية

اقترب كوكوشكين وبارينوف مني وشجعاني على البقاء في

مكاني بوجهها المغبر وثيابها القذرة :

— لقد انتهى كل شيء ايها الاخ ، ابق هنا حتى تحصل على كفايتك من الراحة .

وفعلاً ظلت في مكاني ممدداً انظر نحو جماعة الفلاحين الاغنياء وقد تقدموا من متاعنا . كان رئيس الشرطة في الطليعة ، وخلفه معاونان يقودان روماس من ذراعه المعراة من كمها . والجندي كوستين رافعاً عصاه ويصرخ بجنون :

— ارموا هذا الهرطقي في النار

— افتحوا باب الحمام .

فقال روماس بصوت عال :

— حطموا الأقفال لأني فقدت المفتاح

فقفزت على قدمي ، وحملت عصاي وذهبت الى جانب روماس فسار الحارس ليفتح الحمام ولم تمض برهة حتى نادى استاروستا بصوته المرعب :

— لا يمكنكم تحطيم الاقفال ايها المؤمنون . انه محظر عليكم وتعاقبون عليه امام القضاء .

فأشار كوزمين إليّ صارخاً :

— أريد اعرف من هذا

فقال لي روماس :

— تمهل يا مكسيميتش . لاتخف ، انهم يظنونني خبثاً بضائعي

في الحمام وأضرمت النار . وانبرى صوت من بين الرجال :

— حطموا الاقفال .

- نحن نجيب ايها المؤمنون .

- كلا نحن نجيب وليس انتم

وهمس روماس في أذني قائلًا :

- قف معي ظهراً لظهر حتى لا يضر بونا على حين غرة

حطموا الاقفال ودخلوا الحمام ، ثم خرجوا منه سراعاً ،

وقبل ان يتكلموا اعطيت عصاي لـ روماس ، وقبضت

على غيرها ..

- لا يوجد هناك شيء .

- أبداً ؟ !

- يا للملاعين !

فقال أحدهم بتلكوء :

- .. لقد كنا مخطئين .

فأجابته أصوات عديدة بتوحش وبأوابد الكلام :

- ماذا تعني ؟ مخطئون ؟

- أقذفوهما بالنار .

- هؤلاء المشاغبون .

- مختوعو التعاونية .. هه هه هه .. !

- أيها اللصوص ، ويارؤساء الآمين

فصرخ روماس بصوت جهوري اسكت الجميع :

- الهدوء ... لقد شاهدتم بأم أعينكم ان لا شيء بالحمام ابداً .

فماذا تريدون اكثر من هذا ؟ لقد احقق كل ما املك ، وهذا ما

استطعنا إنقاذه فشاهدوه . ماذا استطيع ان أكسب من حرق

بضاعتي ؟

— قيمة التأمين .

وتعالات الاصوات متوالية بعنف :

— ماذا تنتظرون ؟

— لقد انتظرنا الكفاية .

ومرة ثانية عادت الاصوات الى عنفها :

— ماذا ترقبون ؟

— لم يبق شيء ..

ارتجفت ركبتي هلعاً عندما وجدت وجوهاً متوحشة محاطة
بالشعر المبلل . كانت أفواههم فاعرة ، فاجتاحني موجة رغبة
لأضربهم ، فأحاطو بنا قائلين :

— ها .. أديكما عصي ؟ ! ..

— عصي ؟ !

فقال روماس وقد عرفت من نغمته أنه يمازحني :

— يريدون ان يشدوا الحيتي ، وستنال نصيبك انت أيضاً .

— إنقبه إن بيد الصغير فأساً .

وبالحقيقة كان يحمل فأس نجار ، ولكني لم أعره انتباهاً ،

فهمس روماس بأذني :

— يبدو أنهم يريدون ان يدفئوا أقدامهم الباردة بالعراك .

واياك واستعمال الفأس .

لم يسبق لي معرفة هذا الفلاح ، كان يسير وكأنه يحاول

القفز بوجه غضوب وصرخ بأعلى صوته :

— ارموهم بالحجارة ، وهذا اعظم درس تقدمونه لهم .
والتقط قطعة من القرميد كبيرة وضربني بها على بطني ، وقبل
ان ارد اليه الضربة هجم كوكوشكين عليه واخذ الاثنان
يتصارعان ، ولم تمض لحظة حتى هرع اليهما بانكوف وبارينوف
والحداد ، وثلاثة عشر فلاحاً من صحبنا فاقرب كوزمين مني
حالا وقال :

— انك حكيم يا ميخائيلو انطونوفيتش ، تفهم ان النار
تلهب رؤوس الفلاحين .

قال روماس آخذاً غليونيه من فمه :

— تعال نحتس بعض الشاي في الحانة يا مكسيميتش .
وعندما تقدم كوزمين محاولاً ابداء ملاحظة ، التفت اليه
روماس لفتة بسيطة وقال له :

— ابتعد يا حمار .

وحين عدنا وجدنا البيت ركاماً ، ولكن المطبخ لم يصبه اذى
انما دخان أزرق عاتم ينبعث من مدخنته . فقال روماس متنهداً :

— لم يبق من الكتب شيء . . أسفاً عليك يا عزيزتي !

كان الصغار يخرجون بعضهم بعض الاشياء من النار ،
ويغطسونها بالماء ليلعبوا بها . ومن بينهم طفل ، يبدو أنه موسيقي
ومثل ، في الخامسة ، ذو عينين زرقاوين ورأس مزدوج . كان
يدق على سطل عتيق بقطعة من خشب . وكأنه يتمتع بهذه
الموسيقى الرقيقة في نظره .

واصحاب البيوت المحروقة يتجولون ساهمين ، محاولين العثور

على ما تبقى من مخلفات الحريق ، ونساء نادبات باكيات ، كن
يتشاجرن على اشياء تافهة لا تغني من جوع . وفي البساتين الاشجار
هامدة ، والاوراق صفراء ذابلة قد يبست من وطأة الحرارة ،
وقطوف الفاكهة الناضجة دانية ، والوانها بين هذا الخراب زاهية .
هبطنا النهر واستجممنا فيه ، ثم جلسنا على ضفته صامتين
نحتسي الشاي من الحانة قرب النهر . وقال روماس اخيراً :

- وعلى اي حال ، لقد خسر ذوو البطون المتخمة .

وجاء بانكوف وقد ظهر عليه انه يفكر ، وسأله خو خول :

- كيف حالك الآن يا بانكوف ؟

- كان البيت مؤمناً عليه ، أليس كذلك ؟

فساد السكوت لحظات ، وجلسنا كأننا غرباء ننظر الى بعضنا
البعض بأعين ساهمة فاحصة :

- وما عساك تفعل يا انطونييتش ؟

- لم أقرر بعد .

- عليك بمغادرة هذه القرية .

- سأفكر بالرحيل .

- لدي خطة . فلنخرج من الحانة ونتحدث عنها خارجاً .

وغادرا المكان معاً . وعندما وصلا الى الباب صمت بانكوف

قليلاً ثم قال لي :

- لست بالجبان أيها الشاب . يمكنك البقاء لأن الناس تخشاك

وتخشى ان تخشاك .

ثم غادرت الحانة ايضاً ، وجلست على شاطئ النهر تحت

ظل شجرة شجراء أناظر النهر . كان الطقس حاراً رغم ان الشمس
قد مالت للمغيب ورحت في بحر تفكيرى ساجماً بماضي البعيد
كأنه لوحات رسمت على قلبي .

ولكن شيخ النوم أبى ألا ان يلاطفي ، لما احس اني بشوق
الى خلوفه فرحت في سبات عميق .

— استيقظ استيقظ .. أنت مائت ، استيقظ .

كان القمر وريداً كالدم القاني ، محاطاً بهالة من نور كأنه عجلة
عربة . احسست ان بارينوف راكم على ركبتيه الى جانبي ، يزي
من كتفي بشدة لطيفة تحت هذه السماء الصافية الكريمة ...

— قم ان روماس يبحث عنك ، لقد اضطرب لغيابك . .
ليس من المستحسن ان تنام حيث تشعر بلذة النوم . افرض ان
احداً رماك بحجر . احرص من اعدائك ، انهم لا يتربصون لك
وسط الشارع ، انما يتحينون لك الساعات الملائمة في الامكنة
الملائمة ليقتلوك بها .

ولاحظت احداً يتحرك وراء الدغل ، ما لبث ان ظهر
من ورائها ميكان القوي وقال :

— هل وجدته ؟

— نعم ، وبصحته الجيدة .

وبعد ان سرفنا قليلاً تنهد بارينوف وقال :

— لقد خرجت ثانية باحثاً عن الاسماك ومعى ميكان . لم
يستسهل الحياة يوماً انما جعلها وعرة وصعبة .

وعندما وصلنا ونجني روماس توبيخاً لائماً ايبي على تهاوني :

- كيف يمكنك ان تكون بهذا الاستهتار ؟ .. اتبحث
عن المصائب ؟

ثم قال لي بهدوء بعد ان ذهب بارينوف بصوت حزين :
- سيعرض عليك بانكوف عملاً في حانوته الجديد ، وانصحك
بعدم قبول العمل ، واني بعد كل ما املك وسأرحل عن
القرية الى قيادكا ، وسارسل خلفك حاملاً امكت هناك بامان ، ونعود
لنعيش معاً . اموافق ؟
- كما تريد .

- حسناً .

واستلقى على الارض بملل وما لبث ان غير وضعه مرات ، ثم
ظل هادئاً . فجلست على النافذة اتطلع الى الفولفا وقد انعكست
عليه اشعة القمر فشعشع بركة ، ولمع بجدة لكانه وميض ثورة
مدلّمة . ثم مر قارب بحاري بمحاذاة الشاطئ وهو يلطم سطح الماء
بعبجلانه الخلفية ، وثلاثة مصابيح على سواريه الثلاثة تسحق الليل
بضوءها ، فتجعل الارض وكأنها السماء بنجومها الثلاثة تسير
وتتور . وسألني روماس بصوت خفي :

- أفكر بالتأثر من الفلاحين ؟ إن الحبث عندهم خلة يتميزون
بها ، وهو طبيعتهم الخاصة .

لم تستطع كلماته أن تهديء من ثورتي . ثم عادت على تخيلتي
صورة الافواه الوحشية المحاطة بالشعر المبلل .. وهي تقذف
سبابها وصراخها القذر .

- ابقوا بعيداً عنهم وارجموهم .

لم اتعلم حتى تلك الآونة ما يجب ان احوه من ذاكرتي
وانساه . وبالحقيقة لم يكونوا خبيثين كلهم انما البعض منهم . وهم ،
وان كانوا حيوانات ضارية فقلوبهم طيبة ، وبإمكانك ان ترى
الابتسامة البريئة تملأ شفاههم ، ويصدقون بسهولة كما يصدق
الصغير القصص الدالة على الحكمة والسعادة ، وقصص الاعمال
النبيلة والكريمة .

ولكنهم حين يجتمعون فإن تلك السجايا تنبو عن انفسهم
الطيبة ويرتدون ثوب الاثم والخراب ، حتى لتشبههم بالقسس ؛
يلبسون الثوب الطاهر ، وهم تحته ، بمكر وبهتان . وكانوا يخضعون
خضوع الاماء امام اقوياء القرية ، ولهذا لا يمكنك الا ان تكرههم ،
وتظهر لهم انك عدوهم . واحياناً يكشرون عن انياب الذئاب
ويصرخون في وجوه بعضهم .

وتراهم يتقاتلون لاتفه الاسباب ، ويشقون الارض بمساعهم
وثورتهم . وفي الكنيسة يجتمعون في خضوع واحترام ، وفيهم
الخطباء والشعراء ولكنهم كالبهايم المبهمة المحترقة .

- ٤٥ -

الرحيل

لا أستطيع متابعة هذه الحياة والعيش في وسطها . وفي اليوم
الذي افترقنا فيه قال لي روماس موجأ :
- هل انت مرتاح الفكر ؟

— ولكن ما عساي ان أعمل اذا كنت اعتقد ذلك ؟

— ليس لتفكيرك أساس من الصحة .

وتحدث إلي ملياً بصبر رؤوف محاولاً ان يثبت لي اني مخطيء
وان ما وصلت اليه بعيد تماماً عن الصحة :

— لا تكن متسرعاً في الحكم على الناس . فكر بعقلك وابتعد
عن قلبك . واعلم ان كل مطلب يسير ببطء وعلى التوالي فلا بد
من وصوله الى القمة يوماً . لا تخف امراً ابداً ، ولا تتسرع في
الحكم ، والوداع ايها الصديق العزيز الى ان نتقابل من جديد .

وتقابلنا ثانية في سيدلوز بعد خمسة عشر عاماً ، وكان قد قضي عشر
سنوات من هذه المدة في ياكوتسك منفيّاً لنشاطه في حزب
« نارود نوي رافو » . وعندما غادرني همت في أزقة القرية قاعداً
شعوري ، ضائعاً كالكلب الذي فقد سيده .

واخذت وبارينوف نتجول في البلاد . نعمل في اراضي
الاغنياء ؛ ننزع البطاطا هنا ونقلم الاشجار هناك .
وفي احدى الليالي الماطرة قال بارينوف :

— يا أليكسي مكسيميتش ، يا ايتها الروح المنعزلة ، الا
ترى انه من الاوفق لي ولك ان نذهب الى ساحل البحر غداً ،
لا أرى لرحيلنا مانعاً ، خاصة وهم لا يحبوننا هنا ، ولا يمكنك
ان تعرف كيف يهينون القلائل لازعاجنا .

لقد سبق وعرض بارينوف هذا العرض ، وهو ذلك الانسان
الضائع ، حتى لتحسبه بذراعيه الطويلتين غوريلا او انسان الغابة .
كان المطر يهطل بقطرات ثقيلة على النافذة ، وبشكل ميزاب

رفيع من سقف الحمام ، والبرق الشاحب يلمع في السماء ، وسألني
بارينوف بهدوء :

- ألن ننطلق غداً ؟ ..

وانطلقنا ...

- ٤٦ -

امطار وأضواء

جلست بجانب حيزوم السفينة ، ساجداً في روائع ليالي الخريف ،
والرجل الذي يدير دفة السفينة كانت ضخمة الجثة ، ساقاه
عريضتان وثقيلتان ، وكان يغني وهو في وقفته :

هو روب .. روب . هورو .. ب

والماء يرتطم على جانبي السفينة بنعومة خشنة ، وكنت ترى
فوق النهر غيوماً زرقاء خريفية ، وتشعر ان الظلام قد محا
الشاطئين والارض حتى لتحسب انها ذابت وتحولت الى دخان
وماء . والنهر يجري الى الامام .. الى مكان قصي حيث لا شمس
ولا قمر ولا نجوم .

أمامنا قارب بخاري يحاول إرهاب قوى الماء التي تدفعه ،
وثلاثة أضواء تعين مدى سرعته لنا ، اثنان مع سطح الماء والثالث
في مكان مرتفع . وأربعة أضواء أخرى على السواري تحاكي الغيوم .
شعرت بنفسي كأني سجين داخل فقاعة زيت تنزل بي حسب
مستوى مائل ، فأروح كالذبابة الضائعة ، وقد بدا لي ان كل

حركة تسكن رويداً رويداً ، ثم وقفت العجلات عن ضرب الماء
اللزج ، واندمج السكون بنا ، وهدأنا هدوء رقراق المياه ، أو
كأننا ورقة صفراء ترتعش ، والرجل الضخم يتمشى ذهاباً وإياباً
في سترته المصنوعة من جلد الغنم الممزق ، وقبعته القذرة ، ثم
توقف عن الحركة ايضاً ، ولم يعد يغني وسألته :

- ما اسمك ؟

- وما يعنيك ؟

أجابني بصوت خشن كصوت الدب ، وقد لاحظت وجهه في
ضوء الشمس الآخذة بالشحوب عندما كنا نغادر قازان في الليلة
الآفلة ، كأنه كتلة لحمية عمياء عن الحياة ، مغطاة بشعر كث ،
ثم اخذ مكانه عند المقود بعد ان أفرغ زجاجة من الفود كافي قدح
من الحُشب وشربها كمن يشرب الماء ، وألحقها بتفاحة .
وعندما دبّت الحركة بالسفينة أمسك بالمقود ، وتطلع الى
الشمس وتمتم :

- على بركة الله ..

كانت سفينتنا احدى السفن الاربع التي يسحبها قارب بخاري
من سوق « بنجني نوففورود » متجهة نحو استراخان . الاحمال :
صفائح حديد ، اكياس سكر ، وبعض الاسلاك الثقيلة متجهة
الى بلاد العجم . رفس بارينوف جانب الاسلاك ، وفكر قليلاً
ثم قال :

- انها بنادق من صنع « ايزهيبسك » دون شك .

ولكن الرجل الضخم قال له :

- وماذا يهمك يا هذا ؟ ومن انت ؟

- انما افكر فقط

- هل ترغب في ان امزق شفتيك ؟

ولما كنا لا نستطيع دفع اجرة سفرنا فقد حملونا شفقة بنا .
وعاملنا الجميع معاملة متسولين . قال بارينوف :

- الحياة بسيطة . اذا ركبتها اطاعتك ، وان ركبتك فالجهل
والخسارة يعمان ساعاتك .

كان الليل عائماً حتى انني لم استطع رؤية القوارب النائية قليلاً
ولكن أضواءها قد برقت . أزعجني سكوت الرجل الضخم ،
وأزعجني ايضاً ان الربان ارسلني معه لا ساعده فكان يكلمني :
- هاي .. امسك .

فكنت اقفز لأساعده في ادارة المقود .
- كفى .

فأعود الى مكاني ، وأنا افقد كل محاولة للمحادثة معه :

- وما يعنيك من ذلك ؟

أية افكار كانت تشغل باله ؟ .. وعندما وصلنا الى نقطة
اتصال نهرنا بنهر « كما » ، ذي المياه الصفراء ، ادار وجهه جهة
الشمال وقال :

- « سكوم » .

- من ؟

فلم يجبني . كانت الكلاب تنبح من بعيد لتنبئنا ان فيها بقايا
من حياة . فكان الرجل الضخم يتكلم :

- تحوم الكلاب في أي مكان .
- أين ؟

- حيث ترى اليابسة عن جنبيك . وخاصة من المكان الذي
ينبعث صوت الكلاب القوية .

- وابن ذلك

- في فرلود كا .

ثم اردف بكلمات ثقيلة . من هذا الذي معك ؟ عمك ! اظنه
احمق . لي عم ماهر وشرير وغني ايضاً في « سن برسك » ويملك
حانة .

كان يمزغ كلماته ببطء ، ويبدو عليه انه اذا ما تكلم سيدفع
باهظاً .

ثم سكت ليواقب المصباح الذي يشبه عنكبوتاً ذهبياً ناسجاً
خيوطه في الظلام :

- امسك . هل تعرف القراءة ؟ .. ربما ، من يسن القوانين ؟
ودون ان ينتظر مني جواباً واصل كلامه :

- يقول بعض الناس ان القيصر يسن القوانين ، وآخرون
رئيس الاساقفة ، والبعض يعتقد ان مجلس الشيوخ يفعل ذلك .
وإن علمت سائهاً فاني سأذهب اليه وأقول له « اذا كنت تكتب
القوانين انت ، فاجعل القانون متيناً كالحديد ، وكالقفل والمفتاح
أقفل به قلبي وانتهي من آلامي » .

ثم صمت وركن الى نفسه ، يقرع على المقود بقبضته القوية .
وهتف احدهم بصوت أجش حسبته عواء كلاب

خائفة في منتصف الليل .. ثم ضاع الصوت بين غياهب العتمة
كأنما أكلته الذئاب الجائعة . وفيما السفينة تعوم قال الرجل الضخم
بشيء من الانقباض :

- الى اين يأخذوننا ؟ .. ان قلبي ينكمش .

ولم ادر لم اعتراني الود وعدم المبالاة . وكأني رغبت عن
كل شيء من أجل النوم وقد راود النعاس اجفاني ، فطرده حين
وجدت الفجر وقد زحف بتمهل ، كأنه يصارع الغيوم المهلهلة
التي تحاول صده عنا . فأخذ يصول في مكانه محاولاً الفرار وقد
درج في مهد الظلام العاتم ، وكل ما استطاع هذا القمر عمله هو
أنه جلب لنا فجرأ وردياً مشرقاً من الافق ، يعقبه صبح هادي
بليل ، رمادي ثقيل ، مع نسيم عليل هب رخاء على
رؤوسنا فأحى منا الفؤاد . فبان الشاطئ من هاته الاضواء
كأنه خطوط رتيبة وأغصان ، تحاول صدنا بجمل انوارها ،
سوداء من اشجار الصنوبر ، تبين أمامنا لتهدينا سواء السبيل .
ثم ظهر لنا صف من أكواخ القرية ، وأشباح فلاحين عن بعد
كأنهم تماثيل مرمرية فيخلق فوق رؤوسنا احد الطيور المائية
بجناحيه الكبيرين . ثم جاء من يحل محلي ويحل الرجل الضخم ،
فغفوت تحت الحيمة .

انقذوا روحي

استيقظت بعد ان وضع النهار على خبط نعال ثقيلة تمر على ظهر السفينة ، فوجدت ثلاثة من البحارة ، وقد ربطوا الرجل الضخم على جدار القمرية ، فوقف أمامهم بذراعيه الموثقتين الى صدره ، واصابعه المغروزة في لحم كتفيه ، وباحدى قدميه يضغط على حزمة من الاسلاك ، يطيعهم باحترام ، ثم رجاهم بصوته الحشن :

- اخلوا سبيلي أرجوكم ، دعوني أبتعد عن الخطيئة .
كان حافياً قدماً ورأساً ، يلبس بنطلوناً وقميصاً ، لم يمس كتلة شعره مشط طوال حياته ، يتهدل بعضها على جبينه العريض العتيد ، عيناه صغيرتان حمراوان تنظران باضطراب ورجاء . فقال له احدهم :

- سنرميك بالماء .
- انا ؟ .. أرجوكم دعوني أرتحل ، وان لم اذهب فاني سأقتله حال وصولي سن برسك ، سوف ..
- دعك من هذا

- آه ايها الاخوان !
وجثا على ركبتيه ، ومد ذراعيه الطويلتين فبان كأنه رجل مصلوب ، ثم عاد يلتمس الرجاء :
- أرجوكم .. أريد البعد عن الخطيئة .

كان صوته العميق يصدر عن قلبه ، وذراعا الطويلتان
تبدوان كأنهما مجذافان واصابعه ترتجف ، وايضاً لحيته التي تشبه
(اللباد) .

كادت عيناه الصغيرتان المظلمتان تخرجان من محجريهما ، وكأن
يداً خفية تحاول خنقه . وبصمت ، تحرك الرجال من طريقه ،
فوقف متأرجحاً على قدميه ، وحمل حزمته ، وشكرهم . ثم
تخطى رصيف السفينة ، وقفز بخفة ، فأسرعت الى الحافة
لارى رأس « بيتروفا » يهتز بالماء ، شاقاً طريقه في النهر نحو
الشاطئ الرملي .

وانحنى الاشجار على الضفة كأنها تعينه وتمد له اوراقها الصفراء
ببشاشة . وقال أحد البحارة :

— وأخيراً لقد استطاع ان يتغلب على نفسه . فسألته :

— هل جُن الرجل ؟

— جن ! لا ، إنما يحاول انقاذ روحه .

وقف بيتروفا برهة عندما وصل الى الماء الضحل ، وأوداجه

منتفخة ، ولوح بجزمته ، فأجابه البحارة :

— الوداع .

وسأل احدهم :

— وماذا سيفعل دون جواز سفر ؟

— له عم في سن بوسك نصب عليه املاكه ، فقرر ان يقتله

تشفياً ، وهكذا تراه قدهرب من الخطيئة .. انه رجل وحشي ،
وذو قلب طيب .

قصة مغامرات

استنتجت ان البحارة قوم طيبون ، وكلهم من اهالي الفولغا مثلي ، وفي المساء كنت اشاركهم المرح كأننا اصدقاء حميمون ، ولكن لم يصبح الصباح الثاني حتى لاحظت العيون وقد ملأها الشك بي ، وفهمت حالاً ان لسان بارينوف تغلب عليه . وأخذ يحيك لهم القصص فسألته :

- هل تكلمت شيئاً ؟

فحك رأسه خجلاً ، وابتسامة المرأة تعلو شفتيه وقال :

- انما قليلاً .

- أما قلت لك بأن تمسك ؟

- نعم هكذا فعلت ، ولكن القصة صحيحة تماماً ، وكنا

بجاجة الى ورق لعب ولكن الرجل الضخم كان قد اخذه معه ، فحاولت تسليتهم ببعض الاقاصيص .

وبعض بضعة اسئلة علمت انه حاك - للتسلية فقط - قصة كلها

مغامرات وهي اني وخوخول ، كأننا الغزاة الجبابرة ، الفأس بيميننا ، نقاتل به جماعة الفلاحين للعبث .

وفي اثناء تجوالنا بحثاً عن العمل ، قال لي بعطف :

- الحقيقة ، يجب ان تجد الحقيقة بنفسك ، الحقيقة التي يطمئن

اليها فؤادك ، ويشع بها هذوؤك . أنظر الى القطيع وهو يركع والى جانبه كلبه والراعي . هذه هي الحقيقة ، حيث تجد الرجل

الصالح الصادق ، أما المرءون فتصطاد منهم كل صباح وامسية .
ما زال الناس يحاولون اختراع الصالحين ، لأنهم قوام لم نرهم يوماً ،
وما عرفناهم قط .

- ٤٩ -

الخاتمة

لما وصلنا سن برسك أمرنا البحارة بكثير من الغضب أن نغادر
السفينة ، وعلنوا لنا قائلين :

-- اننا لا نريد عمالاً على شاكلةكم ..

واخذونا بقلبك صغير الى الضفة . وجلسنا هناك نجفف ثيابنا
تحت أشعة الشمس ولم يكن معنا سوى بضعة دريهمات ، وذهبنا
الى الحانة لشرب الشاي :

- وماذا عسانا فاعلين ؟

فأجاب بارينوف بترودد :

- تفضل ؟ بلاد الله واسعة ، وما علينا الا ان نسير لنصل الى
مبتغانا ..

وصلنا بسفينة الى سامارا ، ومنها أقلتتنا الى شواطئ بحر
مزوين بمدى سبعة ايام . وهناك - والفقر ياكلنا - عملنا مع بعض
صيادي السمك في مكان اسمه « كالميك » قرب « كابانكول بافي » .

تمت

المحتويات

صفحة

٧	سأذهب الى الجامعة
٨	جدتي العزيزة
١٥	عاشق النساء
١٦	في ليلة ظلماء
١٩	النهر الحزين
٢٠	المأوى التاريخي
٢٢	العالم المسلول
٢٨	هذا العجوز
٣١	المطبعة السرية
٣٥	المركب المحطم
٤١	الندوة السرية
٥١	عنده حبيبة
٥٨	الى جيلدا
٦٦	آلام الثورة
٦٩	النجدة .. النجدة ..
٧٣	الحب نوعان
٨٠	لقد خلعت قميصها
٨٢	ثورة جسمي
٨٣	ماتت جدتي
٩٢	الفكر الناثر
٩٨	الملحد !
١٠٣	الموى البائس
١٠٦	عدو حميم

١١١	الحب عماد الحياة
١٢٠	رجل عظيم
١٢٢	الهجوم على الجامعة
١٢٧	الانتصار على الذات
١٢٩	الحياة هي المنحطة
١٣٩	حديث الثورة
١٤١	حرية الفلاح
١٤٤	استبداد القيصر
١٤٧	طلقة قبل منتصف الليل
١٥٢	اني ذاهبة الى الدير !
١٥٨	مہجع القسيس
١٥٩	يكرهون الحياة
١٦٨	المهرطقي الأسود
١٧٠	النار الأول
١٧٥	القيصر الجزار
١٧٦	المعنى الشاعر
١٧٨	ثورة على القيصر
١٨٢	قصة سرية
١٨٣	ماريا الجميلة
١٨٣	موت ايزوف
١٨٧	غرام في الخريف
١٩١	النار الثانية
٢٠٤	الرحيل
٢٠٦	امطار واضواء
٢١١	انقذوا روحي
٢١٣	قصة مغامرات
٢١٤	الخاتمة

DATE DUE

JAFET LIB.
* 29 MAY 2007 *
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
* 30 SEP 2009 *
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
* 28 OCT 2008 *
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
* 30 SEP 2017 *
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
* 10 NOV 2008 *
Circulation Dept. 2

جامعائى او ثورة الطلبة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032681



891.78

G669jA

891.78
G669j A